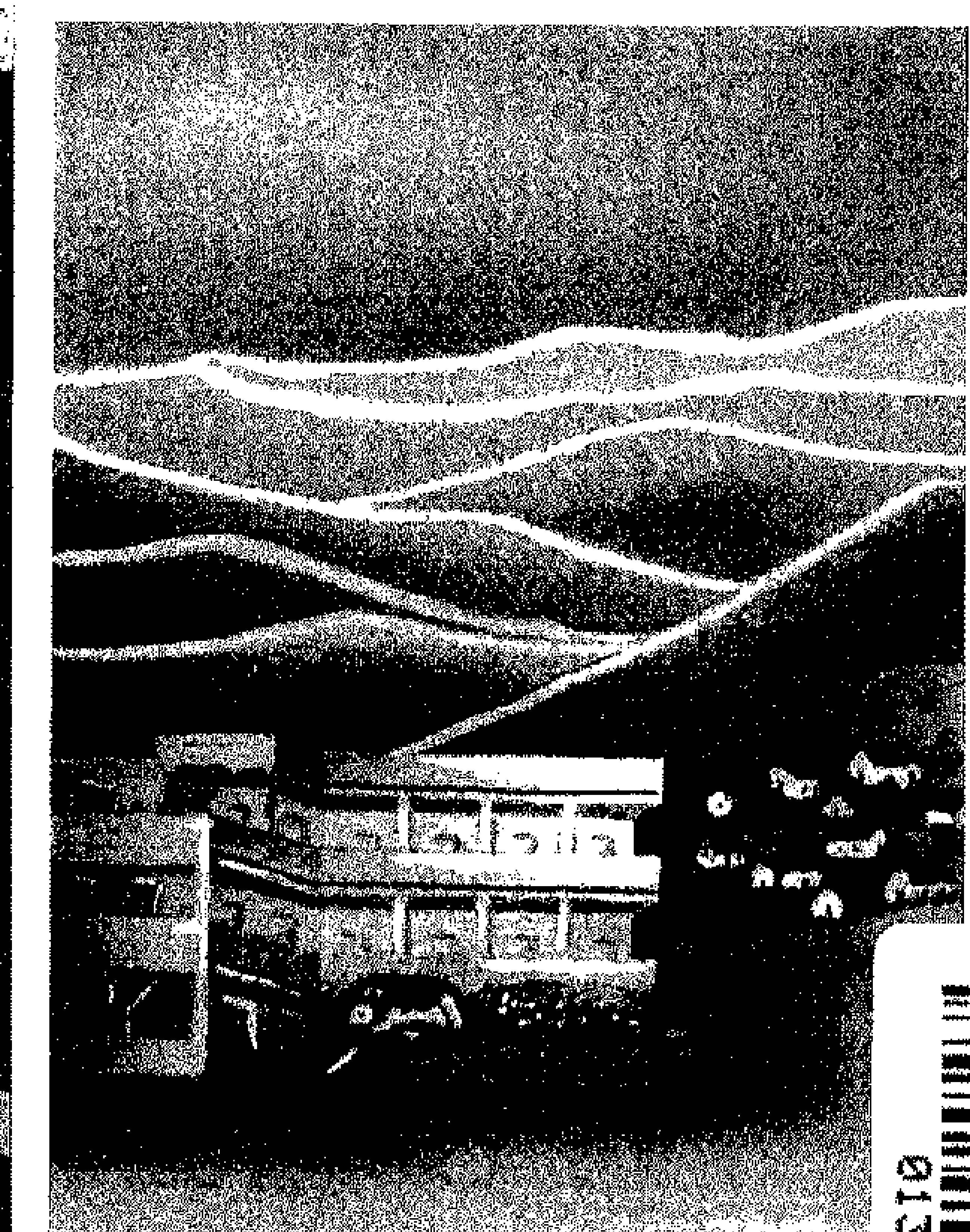
من جبال الحب

قصص وحكايات





نقلها عن الأرمن

هٰذا الكتاب

أَحَبَّ المُؤلّف مسقط رأسه « كَسَب » ، البلدةَ المُستلقية في حضـان تلال خُضْرٍ على قِمّةٍ من قِمَم جبال اللاذقيّة ، فَاستوحىٰ منها قِصصه هٰذه وكلَّ ما كَتب من أدب .

وهـو مُعجَبٌ بأبيه (جـورج : ١٩٠٢-١٩٧٦) ، الذي كان يملك من ذكاء الفِطرة وسُرعة البَديهة وبَراعة الحديث ، ما جعله مصدرَ وَحْيٍ له وإلهامٍ في معظم الحكايات التي ضمّها هٰذا الكتاب .

وبدا أنّ إعجابه بأبيه ، وما يُضمره له من عظيم الوفاء ، قد أملى عليه أن يروي الحكاياتِ منسوبةً إلى الأب ... فكأنه قدّم فيها للقُرّاء فُصولاً من سيرةٍ ذاتيّةٍ حميمة !

وإنّك لتجد ، في تضـاعيف الكتاب ، ملامحَ من حياة الجالية الأرمنيّة في كَسَب وغيرها من المُدن السّوريّة ، في ما يُمارسون من عملٍ ويَحْيَوْن من أمل ، تُشاركهم معاناتهم وتُشاطرهم أفراحَهم ومسرّاتِهم .

صوت من جبال كسب

التّنضيد الضّوئي :

إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع

دمشق ✉ ٤٣٦٣

لوحة الغلاف والإشراف الفني

الفنانة ريما بطرس

زوهراب عنتبليان

صوت من جبال كسب

قصص وحكايات

نقلها عن الأرمنية
نزار الخليلي

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٩٣

إلى روح والدي جورج صوغومون عنتبليان ،

الذي عانى من الفقر واليُتم والتّشرّد ، فآزداد فهمًا للحياة ،
وقُدرةً على تجاوزها ، دون أن تُفارقه بسمتُه السّاخرة ...

أُهدي كتابي الأوّل هٰذا ،

فإنّ ما فيه من الحكايات .. هو منه وإليه .

زوهراب



خشرم النحل

كان « الحاجي أرتين » ، صانعُ السّلاح في كَسَب ، من أعزّ أصدقاء أبي . وذات مساءً عرّجَ ، بعد أن أقفل دكانه ، على بيتنا لاحتساء كوبٍ من القهوة وتزجية بعض الوقت في الحديث مع أبي .

رحّب به أبي أحسنَ ترحيب . وبادر يطلب من أمّي أن تُعِدّ كُوبَيْن من « القهوة الوَسَط » . وهٰهنا أخرج الحاجي أرتين عُلبة تبْغه ووضعها على الطّاولة ، وفي انتظار أن تَصِل القهوة أخذ يلُفّ سيكارةً « غليظة » وأبي يَحْذو حَذْوَه .

جعل أبي يتحدّث ويُفيض في حديثه ، عن الماضي والحاضر والمُستقبل ، وعن كلّ ما يهُمّ النّاسَ في تلك الآونة ، في مُبتدإ الحرب العالميّة الثّانية . وأمّا الحاجي أرتين ، فكان يتحدّث عن مُغامراته الأسطوريّة وتجاربه في مجال الصّيْد ، وعن سَير الأمور في بيته وفي مزرعته تلك الواقعة في منطقة « جاقالحَق » التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن

كَسَب ... وآسترسل يتحدّث ، مُتباهياً ، عن مُبتكراته في صُنع السّلاح ، وعن شجاعته في مُواجهته لمختلف أنواع الأفاعي التي صادفها في حياته ... إلى غير ذلك مما يُقال لتزجية الفراغ .

حتى إذا آنتهيا من شُرب القهوة وتدخين السّكائر ، نهض الضَّيْف آستعداداً للآنصراف . فرأىٰ أبي أنّ من حُسْنِ الضِّيافة أن يُرافقه حتى حُدود المزرعة .

في تلك اللحظة لمح أبي جماعةً من النّحل ، الذي يُربِّيه في المزرعة ، تتطاير وتُطِنّ طنيناً قويّاً . فتعجّب العمّ أرتين ، النّحيل الجسم لكن المتين البُنْية . وأمّا أبي فقد أخذ يُتابع بنظره النّحل المُتطاير ... إلى أن رأىٰ خَشْرَماً من النّحل مُتجمّعاً ومُتعلّقاً بغُصنٍ شجرة ، ففرح أيّما فرحٍ بهٰذه « الأسرة » الجديدة ، وعزم على آقتناصها !

كان النّحل يُتابع تجمُّعَه حولَ الخَشْرَم ، والطّنين يستمرّ رتيباً ، والهواء العليل ينساب مُنبئاً بآقتراب نَوم الطّبيعة في ذلك الأصيل .

هتف أبي :

ـــ قُدُومك خير ، يا حاجي أرتين ! لسوف تذوق ، يوماً ما ، عَسَلَنا ! آنتظرني هنا لحظةً حتى أُحْضِر جرّةً آقتنص فيها هٰذا الخَشْرم . إيّاك أن تُغادر المكان ، فإنّي في حاجةٍ إلى مُساعدتك . يُمكنك أن تتصوَّر أنّنا في ... عُرسٍ بديع !

فآقتعد الحاجي أرتين القُرْفُصاء عند الجدار ، وأسند بُندقيّته إلى جواره ، مُنتظراً عودة أبي بالجرّة .

ولكنّ صانع السّلاح ما لبث أن ملّ الآنتظار وضَجِر من سماع هٰذا

الطّنين المُزعج ، فهمّ بأن يمضي إلى سبيله . ولكنّ آسترجاعه لكلمات أبي ، المُستعينة به ، جعلته يبقىٰ في موضعه كي يُؤدِّي العَون المطلوب .

ثمّ إنّ أبي عاد وفي يده الجرّة . وبدأ عملَه بأنْ حذّر ضيفَه من أن يأتي بأيّة حركةٍ قد تُهيجُ النّحل ، مُؤكِّداً له أنّ النّحل مُسالم إنْ لم يُسْتَثَرْ !

قال الحاجي :

ــ ولكنْ ... ما هي المُساعدة التي تُريدني أن أُقدِّمها لك ، يا جورج ؟ قلْ لي ، فقد تأخّر الوقتُ عليّ ، ونحن في موسم الأفاعي ، وبيتي كما تعلم بعيد !

قال أبي :

ــ ولايهمّك ، حاجي أرتين ! بالصّبر ينتهي العمل في خمس دقائق . الآن تصعَد الشّجرة ، وتعتلي هٰذا الغصنَ الذي يتعلّق به الخَشْرم . ولحظةَ أُقرِّب أنا جرّتي من الغُصن ، تُرْكُلُه أنت بقدمك ركلةً خفيفة ، فيسقط الخَشرم كلّه في الجرّة ، وتنتهي المهمّة ... هٰذا كلُّ ما في الأمر ، يا حاجي أرتين !

وصَعِد صانعُ السلاح إلى الشّجرة ، مُترنّحاً ... وأخذ في تنفيذ المهمّة .

ولكنْ بدا أنّ الرّكلة لم تكن خفيفةً على نحوِ ما ينبغي ، فثار النّحل ، وجعل يدور حول الحاجي أرتين وهو على الشّجرة ، ويحُطّ على يديه ووجهه . فصاح به أبي يُحذِّره أن تصدُر عنه أيُّ حركةٍ تُغضب النّحل ! ولكنّ الحاجي أرتين ، غيرَ المُجرِّب ، خاف من النّحل ، وراح

يهُشُّه عنه بيديه ورأسه ، فآزداد النّحل هياجاً وآشتدّ هجومه عليه . فما كان من الحاجي أرتين إلّا أن قفز من على الشّجرة وهو يَشْتُم بأقذع الشّتائم ، ويصرُخ من الألم ، ويجري هنا وهناك ، ويَذُبّ عنه النّحل ... إلى أن آرتمىٰ على الأرض !

فترك أبي الجرّة ، وأسرع إلى إسعاف ضيفه .

ولكن أيُّ إسعاف ! لقد سبق السّيف العَذَل . فالحاجي أرتين غدا مُتَوَرِّم الوجه واليدين من كثرة ما ناله من إبَر النّحل « الفيتامينيّة » ! إلا أنّ لسانه — لحُسْن الحظّ ! — لم يُصَبْ بأذىٰ ، فقد ظلّ يَفيض بسيلٍ من الشّتائم المُنتقاة !

وينقُل أبي المُصاب إلى البيت . ويبعث إلى أهله مَن يُعلِمهم أنّ الحاجي أرتين « شاء أن يقضي الليلة عندنا فلا تقلقوا عليه » ! وشرع في مُعالجته ، بأن يضع ، على وجهه ويديه ، الكِمَاداتِ المَغموسةَ في محلول الرّماد .

في ذلك اليوم ، أضاف أبي ، في مُذكّراته ، مَسَبّاتٍ جديدةً لم يكن قد عرفها من قبل ، أبدعها فِكْرُ حدّادٍ ، صانعِ سلاح ، قد تورّم وجهُه من لسعات النّحل !

هرة أبي

قُبَيل آندلاع الحرب العالميّة الثّانية ، نزل في فُندقنا بكَسَب ضابطٌ فرنسيّ تُرافقه أسرتُه ، مع كلبٍ تبدو عليه الشّراسة .

قام أبي بآستقبال الضّيف ، وعرّفه على نفسه – بفرنسيّةِ السّاقي « خاجو » الرّكيكة – كما عرّفه على المكان . ثمّ أوْعز لآتّخاذ التّرتيبات اللازمة لإقامة الضّابط وأهله ، ولم ينسَ أن يُخصِّص رُكناً للكلب رُبِط فيه ، وكانت عينا الكلب الحمراوان تُراقبان ، خلالَ ذلك ، هرّة الفندق المُدلّلة ، وهيَ تروح وتجيء غيرَ عابئةٍ بأحد ممّن حولَها .

ثمّ إنّه خطر للضّابط الفرنسيّ أن يستمتع بمنظر الهرّة والكلب وهما يتقاتلان ، فقام بفكّ رِباط كلبه ... الذي ما كاد يتحرّر من قيده حتى آنقضّ على الهرّة دونما هوادة .

آرتاعت الهرّة ، وآنطلقتْ تعْدو ناجيةً بنفسها ، وتسلّقتْ شجرةً في فِناء الفندق ، وآستقرّتْ على غُصنٍ فيها كالآمنة . والضّابط الفرنسيّ يُقهقه في ذلك عالياً وهو يَتملّى النّظر من الهرّة المذعورة والكلب

المُستوحش . وبدا الكلب وكأنّه آستوعب مطلبَ سيّده ، فلبث تحت الشّجرة مُترقّباً ، وهو ينبَح بصوتٍ مُنْكَر .

ولكنْ بدا ، أيضاً ، أنّ الهرّة لم تحتملْ عبثَ هٰذا الغريب الذي حلّ في الفندق ... فإذا هي تتحفّز ، مُستجمعةً كلَّ قوّتها ، لتنقضّ من أعلى الشّجرة ، على غير تَوَقُّع ، وتحطُّ كصخرةٍ على ظهر الكلب ، وتتشبّث بجلده ، وتروح تُعمِل فيه أنيابَها .

بُوغِتَ الكلبُ ، وأخذه الذُّعر ... فجعل يعدو في الفِناء كالمسعور تخلُّصاً من الهرّة المُمسكة بظهره . ولكنّها لم تتخلَّ عنه ، بل زحفتْ إلى عنقه ، حتّى وصلتْ إلى وجهه ، وهي تُعمِل فيه تمزيقاً !

وخشي الضّابط على كلبه ، فهَرَع إلى أبي يستنجد به ، بإشارات من يديه ورأسه ، ومُستعيناً بلغة السّاقي الرّكيكة ، مُلتمِساً تحريرَ كلبه العزيز من براثن هٰذه الهرّة الفظيعة !

وأبي يتبسّم ، ويُزغرد قلبه فرحاً .

وبمُساعدة العاملين في الفندق ، تمّ تخليص الكلب الذي كان قد ضُمِّخ بدمه .

ثمّ إنّ الضّابط الفرنسيّ سأل أبي ، مُتعجّباً ، كيف أنّه آستطاع أن يُروِّض هرّته ترويضاً جعلها أقوىٰ من النّمِر ؟!

فأجابه أبي : قطّتنا لا تؤمن بمقولة مَن صَفَعَك على خدّك الأيمن فأدِرْ له خدّك الأيسر ، بل : العين بالعين والسِّنّ بالسِّنّ والبادئ أظلم !

فأُفحِم الضّابط الفرنسيّ ، ولاذ بغرفته لا يلوي على شيء .

مبيد حشرات جديد

ذات صباحٍ ربيعيٍّ بديع ، خرج أبي من البيت مُتوجّهاً إلى قرية « قرادوران » لشراء شيءٍ من التّبغ ، من عند صديقٍ له هناك يُدعىٰ « أفيليس تيتيزيان » .

فمرّ ، في طريقه ، بفلّاحٍ يفلح الأرض بمحراثٍ يجُرّه ثَوْران قويّان . فسلّم أبي عليه ، وجلس بقربه ، ثم أخذ يلُفّ سيكارةً ليُدخّنها وهو يتملّىٰ النّظر من سِحْر الطّبيعة ، التي بَدَتْ له أشبهَ بلوحةٍ فنيّة تحت أشعّة الشّمس الدّافئة وأريج الأزاهير العَطِرة .

كان الثّوران يَجُرّان المحراث بخطىً وئيدةٍ وآستسلامٍ أعمىٰ ، يَشُقّان الأرض التي تتموّج تحت سِكّة المحراث ، مُحتضنةً أحلامَ فلّاحٍ طيّب مُستبشرٍ بالخير . كان « العمّ كيورك » يقود الثَّوْرَيْن ، والمسّاس في يده ، يُخاطب الثّورين الطّيّعَيْن ويُشجّعهما بكلماتٍ حُلوة وكأنّه يُخاطب ولده ... وأبي يُراقب هٰذا المشهد مُبتهجاً ، وهو يسحب نَفَساً من

سيكارته بعد نَفَس حتى رئتيه ، ثم يَمُجّ الدّخانَ مُوَحِّداً الله ، مُثْنياً على قدرته وجميل صُنْعه .

فجأةً حدث ما لم يكن في الحسبان : قَفَزَ الثّوران ، فقطعا قِيادَ نِيرهما ، وراحا يَعْدُوان عَدْواً جُنونيّاً بآتّجاه أعلى الجبل .

دُهِش أبي . على حين أدرك الفلّاح أنّها « ذُبابة البَقَر » ، التي تلسع البقرة فتُؤلِمُها أيّما إيلام .

آضطّرب أبي كثيراً ، وأشعل سيكارةً ثانيةً وآقترب من الفلّاح يُواسيه مُحاولاً أن يُخفِّف مِن وَقْع الحادثة عليه . وهٰذا يُتابع بنظره ما يُعانيه ثوراه العزيزان من أذىٰ هٰذه الحشرة ، التي يعرف أبي جيّداً ما تُسبّبه من ضررٍ لحيوانات الفلّاحين .

هنا « حَبَكَت النّكتةُ » عند أبي المُتمرّس في حَبْك النُّكت . قال وهو يتصنّع الجِدّ :

ــ مِن المؤسف أنّك لم تسمعْ ، يا عمّ كيورك ، بالمُبيد الذي آستحضره « القهواتي ميناس » والمُعَدّ للقضاء على هٰذه الذُّبابة !

فتح الفلّاح الطّيّب عينيه على سَعَتْهِما ، وحَدَّق في أبي مُتَعَجِّباً ، وقال :

ــ حقّاً ، أنا لم أعلمْ به ولم أسمع . هل قلتَ إنّه عند القهواتي ميناس ؟ ومن أين أتى به ؟! (ويهزّ رأسه في أسىٰ) إنّ أحداً لم يُحدِّثني ، بعدُ ، عن هٰذا المُبيد !

قال أبي مُمْعِناً في جِدِّيَّته :

ـــ أجل ، يا صاحبي ! فَلْتَعْلَمْ ، الآن ، أنّ مُبيد ذُبابة البقر قد تمّ آكتشافُه ، وهو عبارة عن مسحوقٍ بُنّيّ اللون زهيدِ الثّمن . فلْتذهبْ غداً إلى كَسَب ، تتناول فنجان قهوة عند ميناس وتحصل على المُبيد !

فسأل الفلّاح السّاذَج :

ـــ وكيف يُستعمَل ، هٰذا المُبيد ، يا جورج ؟

أجاب أبي :

ـــ بسيطة ! تنثُر المسحوق على ظهر الثّور وتدلُكه جيّداً حتى لا تأخذه الريح ... ثم إنّ رائحتَه هي التي تطردُ الذّباب !

فأعلن الفلّاح الطّيّب فرحته :

ـــ يا لسعادتي !

في صباح اليوم التّالي كان العمّ كيورك في كَسَب ، يقرع باب مقهىٰ ميناس الكبير .

كان العمّ ميناس يعزِف على رَبَابته ذات الأوتار الثّلاثة ، فتركها ، وقام يفتح باب مقهاه ، العظيم القديم ، الذي غَيّر الدُّخانُ لونه على مرّ السّنين . فكان أن آستهلّ نهاره بالعمّ كيورك ، الفلّاح القادم من قرادوران :

ـــ صباح الخير ، أخ ميناس .

ردّ ميناس :

ـــ ألف صباح جميل . تفضّل . ماذا تشرب ؟ قهوة أم شاي ؟

بادره الفلّاح يقول :

ــ لا هٰذا ولا ذاك . جئتُك أشتري مُبيداً لذُبابة البقر !

فاجأتْ هٰذه الكلماتُ القليلة القهواتي ميناس . وآستعاد قَوْلَةَ الرّجل وكأنّه لم يفهمْها . فأكّد الفلّاح :

ــ قلتُ أُريد مُبيداً يطرُد تلك الذُّبابة التي تُجَنّن البقر وتجعله يَهيم في الجبال !!

فأدرك القهواتي أنّ أحدهم قد مَزَح مع الفلّاح الطيّب هٰذه المَزْحَة ، وحَزَر أنّه أبي . فآستمهله لحظةً ، ودعاه إلى الجلوس ريثما يُحضّر له المُبيد . ودخل إلى المطبخ ، فأعدّ فنجان قهوة لزبونه ، وقدّمه إليه . ثم عاد فملأ زجاجةً بالماء المُتبقّي من غسيل الفناجين ، ومزجه بالرّماد ، وقدّم الزّجاجة إلى الفلّاح ، الذي أخذها شاكراً .

ــ كم تُريد ثمناً لها ؟

ــ لا شيء . فأنا لا أتقاضىٰ من الفلّاحين ثمناً لهذا المُبيد . ولست أشكّ في أنّك سوف تُقدّم لي ، غداً أو بعد غد ، هديّةً من تبغك الفاخر !

ــ على راسي وعيني .

قال الفلّاح ذٰلك ، ومضىٰ بالزّجاجة مسروراً ، ولسانُه يلهَج بالشّكر والآمتنان .

بعد يومين آلتقىٰ القهواتي بأبي في السّوق ، فبادر يقول له :

ــ ويحك ، يا جورج ! أيّ مبيدٍ آبتدعه خيالُك الخِصْب وصَبَبْتَه على رأسي ؟ أتراني قهواتيّاً أم صانع أدوية ؟

قال أبي ضاحكاً :

ــ وماذا فعلتَ ، يا أخ ميناس ، للرّجل ؟ لا ريب أنك أعطيتَه دواءً ، دواءً ما . فأنا أعرفك جيّداً : قلبك طيِّب ، ولا ترضى أن يرجع أحدٌ من عندك صِفْرَ اليدين !

فأجاب العمّ ميناس :

ــ طبعاً . أعطيتُه المُبيد ، وآستفاد منه لسلامة نيّته ، بدليل أنّه أخذه ثمّ لم يُرِني وجهه ... لله درُّك ، يا رجل ! أنت تفعل الفِعْلَة ، وتُحمِّلني تَبِعَتَها !

الولد الضائع

عندما كان أبي يعمل نجّاراً ، عُهِدَ إليه ، مرّةً ، بإصلاح مَنْجور بيتٍ آستأجره مُعلّمُ مدرسةٍ بروتِستانْتيٌّ وصل حديثاً إلى كَسَب من لواء الإسكندرون .

وبدأ أبي يعمل ، وراء المِنَصّة ، في إصلاح الأبواب الخشبيّة المُخلّعة والنّوافذ التّالفة ، ويُركِّب لها بديلاً عن البلّور المُكسَّر ، الذي وَضَعَ عشرة ألواحٍ منه فوق طرف المِنصّة وهو يعمل بهمّةٍ ونشاط ، على حين كان مُعلّم المدرسة الفُضُوليّ ، يقف إلى جواره ولا يُريد أن يُفارقه أبداً ، بل كان يقوم بمساعدته ببعض عمله . وقد جَهِد أبي في أن يُطَمْئن « السيّد هرانْت » – وهٰذا آسم المعلّم – ويُؤكّد له أنّ العمل سينتهي على ما يُرام ، ولكنّ المعلّم كان حريصاً على أن يبقىٰ إلى جانبه ، وعيناه تَرِفّان مثل تلميذٍ خائف .

وفيما هما كذلك وقعتْ يد المعلّم على ألواح البلّور الموضوعة على المنصّة ، فهوَتْ إلى الأرض وتهشّم بعضها .

فقال معلّم المدرسة مُرتبكاً :

ــ لعن الله الشّيطان . قاتلني الله على ما فعلت !

فطيَّب أبي خاطره :

ــ كَسْرُ البلّور خير ، يا أستاذ ! لا تحزنْ . غداً أطلب ألواحاً غيرها ، وأُركِّبها دون تأخير . لا تحزنْ أبداً . فالحزن يضرّ بالصحّة .

ردّ المعلم :

ــ أجل ، أجل . الحزن يضرّ بالصّحّة .

في هٰذه اللحظة عينها ، سُمِع صوت امرأة ، في الخارج ، وهي تصرُخ مُعْوِلةً ، ثمّ تندفع إلى الدّاخل ، صائحةً :

ــ الحقْ بي ، يا هرانت ! « جانو » مفقود . هيّا نبحث عنه .

وبدلاً من أن يُهدِّئ المعلّم من رُوعِ زوجته ، جُنَّ جنونُه هو الآخر ، وبدا أشبهَ بعاصفةٍ في بحر ... وخرجا يتباريان بالصُّراخ ، بحثاً عن وحيدهما المُدلَّل الضّائع ، جانو .

ورأىٰ أبي أنّ مُتابعة العمل في هٰذه الحالة غير مقبول ، فترك ما بيده ، ولحق بالزّوجين ، يستطلع حقيقة ما حدث ، أو ... ما يُمكن أن يحدث . وفي الخارج سَمِعَ أهلَ الحيّ كلُّهم وهم يُنادون على جانو ... وجانو غير موجود !

فأخذ أبي يقول لهم مُهدِّئاً :

ــ يا جماعة ! لا حاجة لهذا الصُّراخ . مَن يسمعكم يَسْخَرُ

منكم . حيثما يكون الولد ، الآن ، فإنه عائدٌ إليكم بعد قليل . ربما ٱلتقىٰ ولداً في سنّه فرافقه . لسوف يعود . لا حاجة لهٰذا الصُّراخ كلّه !

فقال المعلم مُعترضاً :

ــ ولكنّ آبننا لا يفعل ذلك . لم يَعْتَد الخُروج من البيت . إنّه ولدٌ مُهذّب . ولا شكّ أنّ مُصيبةً نزلتْ به !

قال أبي :

ــ آنتظروا قليلاً . ولسوف يعود آبنكُم ، ولا شكّ ، قُبيل المساء . سلّموا أمركم إلى الله العليّ القدير ، خصوصاً وأنتم إنجيليّون . آصبروا .

فردّ معلم المدرسة :

ــ إنجيليّون ، أجل ، ولكنّ هٰذا شيء آخر . ولا بدّ لنا أنّ نبحث عن جانو ، الآن .

لم تكن هنالك مَجارٍ لتصريف المياه المالحة في بلدتنا في ذلك الحين ، فكان صاحب كلّ بيت يحتفر جورةً فنّيّةً لتصريف مُخلّفات بيته ، ويُغطّيها بألواحٍ من خشب . وكانت هٰذه الأخشاب تتداعىٰ مع مرور الزّمن ، ويتحطّم بعضها ، فينكشف جانبٌ من الجورة ويظلّ دون غِطاء . وحدث مرّةً أنّ كلباً وقع في إحدىٰ هٰذه الجُوَر ولم يستطع الخُروج فقضىٰ غَرَقاً . كما ٱتّفق لرَجُلٍ راشد أن سقط في إحداها ، وكاد يغرق لولا أن تنبّه إليه الجيران فهَرَعوا إليه يسحبونه من الجورة وهو في آخر رَمَق !

فٱتّجه ذهن المعلّم إلى هٰذه الحُفَر ، وسرعان ما جاء بعصاً طويلةٍ وراح يُحرّك مياهها النّتِنة ، مُنادياً :

ـــ جانو ! جانو !...

وهو يتنقّل بين حفرة وأُخرىٰ ... ولكن لا أثر لجانو !

عند المساء ، أقبل جانو وبصُحبته واحدٌ من رفاقه !

وما كاد الأبُ يراه حتى أسرع إليه يضمّه إلى صدره ، ويُغمغم بحنان :

ـــ ولدي الحبيب !

تاجر الجلود

ذات يوم ، نزل في فندقنا قادمٌ من دمشق .

وما إن تعرّف على أبي ، حتى أعلمه أنّه مَعْنِيٌّ بتجارة الجُلود ، وأنّه جاء إلى هٰذه المناطق قَصْدَ أن يُلِمَّ بأنواع الحيوانات البرّيّة التي تعيش في الجبال والغابات . فلم يبخلْ أبي عليه بما يعرف في هٰذا المضمار ، وراح يُعَدِّد له أسماء عشرات الحيوانات البريّة والأهليّة التي تعيش في المنطقة ، واصفاً جُلودها ، مادحاً إيّاها ما تستحقّ من مديح .

ففرح النزيل الجديد بذلك فرحاً عظيماً ، وأعرب عن رغبته في أن يحظىٰ ، خلال مدّة إقامته في الفندق ، بنماذجَ من جُلود هٰذه الحيوانات . وأخرج من محفظة نقوده ورقة من فئة مئة ليرة ، ووضعها في كفّ أبي ، وهو يقول :

ــ يا مُعلّم ! أرجو أن تبعث ، بأسرعِ ما تستطيع ، صيّادين إلى الغابات التي ذكرتَ ، ليصطادوا لي ما يُمكنهم من هٰذه الحيوانات ، وأنا أدفع لهم فيها ما يستحقّون من ثمن .

فألقى أبي نظرةً إلى ذات المثة ، وقال وهو يبتسم :

ـــ سيّدي المحترم ! يُسعِدنا أن نُلبّي طلباتكم بأقصى ما نستطيع من السُّرعة . أعِدُك بأن أقدّم لك ، بعد يومين لا أكثر ، خمسة عشر جلداً على الأقل من أفخم الجلود !

فشكر التّاجر الدّمشقيُّ أبي على حُسن تجاوبه ، وتمنّى التّوفيق للصيّادين .

*

وما هو إلا يومان ، حتى كان الصيّادون يتواردون إلى الفندق ، ويَطْرَحون في فِنائه ما أتَوْا به من جُلود ... وقد كانت كما يلي :

* حاجي أرتين المشهور : جُلود ثعلبين وأرنب وأفعى ذات قُرون ،

* انترانيك الشّجاع ، من الصّخرة : جلود خنزير وقُنفذين وأرنبين ،

* جانو الأسكوراني : جلود إثنتين من بنات آوى وقُنفذ وضبع ،

* هاروت القاراداشي : جلد تَيْس برّيّ وجلد غزال ،

* خروشيف ، من الكَرْم العالي : جلود ثعلبين وضبع ،

* آرام الباشوردش : جلد تيس برّيّ ، وحمامتان هديّةً لأبي !

* آرام القارادوراني : جلود قطّتين برّيّتين وفرخ دبّ ،

* آرشاق الجيناري : جُلود أفعيَيْن بشاريين وضَبّ ،

* نوريتس الكوركوني : جلد ثعلب ماء ،

* شابٌّ من النّبعين : جلدا جَمَلَيْن .

بدا أبي سعيداً بما أنجزه صيّادو بلدته كَسَب ، وفَخُوراً بشجاعتهم . وقد هنّأهم من صميم قلبه ، وشكرهم فرداً فرداً على مُبادرتهم لتحقيق طلبه ... ثم أسرع يرتقي الدّرج إلى غرفة النّزيل العزيز ليُبلغه الخبر .

ثم ما إن صافحتْ عينا التّاجر وجوهَ الصيّادين ، ومرّ بهما على الجُلود المُكدّسة ، حتّى بدا عليه الإعجاب الفائق ، وصاح :

ـــ كلّ هٰذه الجُلود في يومين ؟

ثمّ أخذ يتفحّصها ، وهو يقول :

ـــ يا سلام ! كلّها في حالة جيّدة !

وأخرج محفظة نقوده ، وأخذ يدفع لكلّ واحد من الصيّادين ما يستحقّ ثمناً لجُلوده .

وأمّا حاجي آرتين ، فإنّه ـــ لحظةَ دَسَّ في جيبه خمساً من ذات العشر ليرات ـــ مال على أبي ليهمس في أذنه :

ـــ قلْ للرّجل أن يعود في الأسبوع المُقبل ! فإنّ الحيوانات المُفترسة تتزايد عندنا يوماً بعد يوم !!

*

وسُرعان ما أبدىٰ الرّجل رغبته في أن يُسافر في غَدِهِ التالي ، فقال لأبي :

ــ أرجو أن تُدَبِّر سفري إلى اللاذقيّة .

فحجز له أبي المقعد المُجاور للسّائق كارنيك . وفي الصّباح رافقه حتى السّاحة ، حيث أشرف بنفسه على تحميل الجُلود ، بواسطة الحمّالَيْن خليل ومصطفىٰ ، على ظهر الباص المُتوجّه إلى اللاذقيّة .

بدا الامتنان على الرّجل واضحاً ، وشكر أبي بكلماتٍ حارّة . وقبل أن يصعد إلى الباص ، خطرتْ لأبي خاطرةٌ أسرع يعرِضها عليه .

ــ عندي فكرة ... (وأخذ يتكلّم بعربيّةٍ مُكسّرة) ترىٰ ، هل تُوافقكم جلود القطط البريّة ؟ فإنّ في بلدتنا كثيراً منها !

أطرق الرّجل هنيهةً ، ثم مسح جبهته ، وقد ارتسمتْ على فمه بسمةٌ واسعة ، والتفت إلى أبي يُجيبه :

ــ إنّها فكرة جيّدة ! أرىٰ أنّكم ، في هٰذه البلدة ، نشيطون ومُفكّرون . أُهنّئكم من أعماق قلبي .

ودون تردُّد مدّ يده إلى جيبه ، ودفع لأبي مئة ليرة على الحساب ، وقدّم له بطاقةً بعنوانه بدمشق ورقم هاتفه ، وقال :

ــ يوم يبلُغ عددُ القطط البريّة ، المُحتَبَسة ، خمسين أو خمساً وسبعين ، فأخبِرْني ، لأحضر فوراً ، ونقوم بإجراء التّرتيبات المُناسبة .

وغنيٌّ عن البيان أنّ « أمّ المئة » كانت تُعَدّ ــ في ذلك الحين ــ شيئاً كبيراً ، فلم يكن من السّهل على المرء أن يكسِبها بسُهولة ، وإنّ أُسرةً كان يُمكنها أن تقتات بهٰذا المبلغ مدّةً ما .

*

راح أبي يُفكّر في الطّريقة التي يُحقّق بها لتاجر الجلود ما آقترح عليه من مشروع ، مُستفيداً من ذات المئة الليرة هٰذه ، حتى جَفَاه النّوم . إلى أن آلتقىٰ يوماً ، وهو عائدٌ من السّوق ، صاحبَه « اصادور ڤالايجيان » ، وكان هٰذا قد سمع بقصّة زيارة تاجر الجلود لكَسَب ، فقال لأبي ، دون مقدّمات ، وفي صوته أسفٌ واضح :

ــ عمّي جورج ! أنا أيضاً ، عندي جلود ! ليتك كنت أعلمتني بالأمر .

فقال أبي :

ــ لاتأسفْ ، يا اصادور ! فالرّجل عائدٌ إلينا عمّا قريب !

وحكىٰ له أمر الخمسين قطّةً البريّة ، أو الخمس والسّبعين ، التي يتعيّن حبسُها حَيَّةً في أحد الإصطبلات ، قبل أن يقوم بإبلاغ التّاجر هاتفيّا ، فيُسرع بالمجيء ، والتَّسَلُّم ، ودَفْع الثّمن !

فقال اصادور :

ــ انا رهن إشارتك ، بروحي وجسمي ، يا عمّي جورج ! أوْمِىءْ إليّ بيدك ، لحظةَ تُريد ، تجدْني حاضرا .

فقال أبي :

ــ لقد لاقيتُك في الوقت المناسب ... (وناوله ورقةً من ذات الخمس والعشرين) هٰذي سُلفة ، يا اصادور ... وبعد أن تقنص القطط المطلوبة وتحبسها في إصطبل تنال حقّك كاملاً .

ولّما كان الأخ اصادور ڤالايجيان يُعاني من البطالة منذ حين وقد تراكمتْ عليه الدُّيون فقد جاءه عَرْضُ أبي ، المقرونُ بالليرات

الخمس والعشرين ، مُنْقِذاً له من وضعه التّعيس ، ومُفضياً به إلى درب السّعادة ... قال :

ــ آبشِرْ ، يا مُعلّم ! أَمْهِلْني أسبوعاً واحداً ، فأتصيّد لك القطط . أَعِدُكَ صادقاً .

*

بعد أيّامٍ ستّة ، ظَهَرَ اصادور في فِناء فندقنا ، وهو يصيح :

ــ القطط جاهزة ، يا معلّم ! خَبِّرْ التّاجر ليأتي ويتسلّم مالَه حالاً ، فالأمر لا يَحتمل التّأخير . بدأت الحيواناتُ تَثُور ، وهي تتربّص بعضُها ببعض ، تُريد كلُّ واحدةٍ أن تَنْقَضَّ على الأُخرىٰ ، حتى بات من المستحيل عليّ دُخول الإصطبل لإطعامها !!

قال أبي ، وهو الذي يعرف في اصادور وَلَعَهُ منذ الصِّغر بتعذيب الحيوانات :

ــ بوركتْ جُهودُك ! كم قطّةً قَنَصْت ! منذ مدّةٍ وأنا أفتقد مُواءَ قطّتنا ، فَحَزَرْتُ أنّ قَبضتك الحديديّة قد وصلت إلينا !

أجاب اصادور :

ــ العدد الذي طلبتَ وأكثر ، يا معلّم !

فأجاب أبي :

ــ ولكنْ يُؤسفني أن أُبلغك ، يا اصادور ، أنّي تلقّيتُ ، أمسِ ، من التّاجر ، رسالةً يعتذر فيها عن شراء القِطط ، ويقول إنّ سُوقَها بات كاسداً بسبب آندلاع الحرب العالميّة ... وينصح بإطلاق سَراح ما آقتنصْناه من قِطط !!

كاهن قريتنا

كان في بلدتنا كاهنٌ يُدعىٰ « هوانيس تونتيان » . وكان رجلاً قوياً جَهْوَرِيَّ الصّوت ، رائعاً ومحبوباً من الجميع لطِيب نفْسه وحُسْن خُلُقه وخَلْقه .

ومع أنّ أبي كان ينتمي ، بمذهبه ، إلى الطّائفة البروتِستانْتيّة ، وينتمي الكاهن إلى الطّائفة الأرثوذُكسيّة ، فإنّ أبي كان مُعجَباً ، بل مُتعلّقاً به ، إلى درجة أنّه كان يتردّد ، بين الحين والحين ، على كنيسة الأرثوذُكس ، كي يستمع إلى وعظ هٰذا الكاهن ويستمتع بالإصغاء إلى ترتيله العذب النّقيّ .

وممّا أذكره أنّ الكاهن لم يكنْ يبخَل علينا بزياراته ، فكان يدخل بيتنا ويتصرّف بيننا كما لو أنّه في بيته ، فيأكل ، ويشرب ، ويُنشِد . وأذكر أنّي رأيت أبي ، يوماً — والكاهن يُنشِد أُغنية « اللقلق » للموسيقار « كوميداس » هٰذا المرح جداً — يبكي !

وكثيراً ما رأيت هٰذا الكاهن يخلع مُسُوحَه السُّود ويرميها جانباً ، مُشاركاً النّاس حياتهم اليوميّة ، ومُشاطِرَهم أفراحهم وأتراحهم ... بقدر ما كان مُحبّاً للمِزاح والضَّحِك العريض ، فكان – وهو في زيارتنا – يتنافس مع أبي في سَرْد النُّكات والحكايات المُسلّية .

ذات يوم قال أبي يسأله :

ـــ يا محترم ! إنّي لأراك ، وأنت تتلو قُدّاسَك على مَيّت ، تبدو حزيناً حُزناً يفوق حُزنَ أهله ، فكأنّه منك وقد فارقك ! وأراك ، وأنت تُبارك لعَرُوسَيْن ، تفرح لهما أكثرَ من فرح أهليهما بهما ، فتزيد من تَعلّق كلٍّ من العَرُوسَيْن بالآخر وشَغَفه به ! فهل تفعل هٰذا عن صدق ... أم ماذا ؟

فأجاب الكاهن :

ـــ يا جورج ! إذا لم يَشعر الكاهن بمَسرّة الفرحانين ويألم لألمِ المحزونين ، فأيّ كاهنٍ هو ؟

وأطلق ضحكةً عريضةً ، ومضى إلى شأنه .

موسيس محشيديان

في شتاءٍ بعيد ، آندلقت مياهُ السّماء كلُّها على « جبل الأقرع » الرّابض فوق بلدتنا ، وجَرَتْ سيولٌ هوجاء لم تكتفِ بما حملتْه معها من التُّربة الحمراء ، بل جرفتْ في طريقها صُخوراً ضخمةً هدّدتْنا بالدّمار ، وسدّتْ منافذ الوادي العظيم . وآرتفعت ، في ذلك ، المياهُ حتى غمرت الجسر الذي يربط بين جانبَي البلدة ، وآقتحمت الحوانيتَ وجرفتْ ما فيها وألقتْه بعيداً حيث لا يعرف أحد . وكان هدير السُّيول يبعث الرُّعب في النّفوس ، حتى آضطُرّ ساكنو البيوت على جانبَي مجرى السّيل إلى الجلاء عن دُورهم والنّجاة بأنفسهم إلى الأعالي خوفاً من آنهيار البيوت على رؤوسهم أو من آنجرافهم هم مع مياه السُّيول المُتدفّقة .

أجل ، جرت السُّيول هكذا بمياهها الحمراء . وآنقسمت البلدة إلى شَطْرَيْن ، لا يستطيع ، أو لا يجرؤ ، مَن في هٰذا الشّطر على الأنتقال إلى الشّطر الآخر . وتعاطَف النّاس مع الضّحايا ، ففُتحتْ بيوتُ الآمنين لإيواء الذين تشرّدوا ، ولم يبخلوا عليهم بما عندهم لمُواساتهم .

ومن حُسن الحظّ أنّ هٰذه المحنة لم تُطُل . فقد آنقطع ، في صباح اليوم التّالي ، وابلُ المطر ، وغاضت السُّيول ، وآنحسرت المياه عن الجسر ، وعاد النّاس إلى أعمالهم .

كان أصحاب الحوانيت أكثرَ النّاس تضرّراً بهٰذا السّيل المُفاجئ ، وعلى رأسهم السيّد « موسيس محشيكيان » بائعُ الأقمشة ، الذي يقع حانوته عند رأس الجسر الأعلى ، فقد جرف السّيل مُحتويات حانوته كلّها ! ولكنّ الأمر كان مُختلفاً عند السيّد موسيس ، ذلك أنّ السّيل لم يكتفِ بأن جرف ما في الحانوت من الأقمشة ، بل أخذ معه الدّفاتر وقد سُجِّلتْ فيها الدُّيون على أهل القرية لما كانوا قد آبتاعوه منه من الأقمشة بالدَّيْن قبل السّيل ، ففَقَد بذلك مُستنداته عليهم !

لم تقعْ أضرارٌ في الأرواح ، وتقبّل النّاس أضرارهم في الأموال برضىً وتسليم ، إلا موسيس محشيكيان ، الذي فقد صوابه ، وراح يُكلّم نفسه شاكياً حظّه العاثر الذي جعل السّيل يجرف دفاتر الدُّيون ، فكانت خسارته بذلك مُزدَوَجة !

ولكنْ من ذا الذي يهتمّ بما خسره السيّد موسيس ، أو السيّد واهان ، أو السيّد وارطان ؟... بلاءٌ عامّ ، غَضَبٌ من السّماء ، نزل ، ومضىٰ .

كان السيد موسيس إنجيليّاً ، وكان عُضواً في مجلس الكنيسة ، مَثَلُه مثلُ أبي ، الذي كان أبوه – جدّي – تاجراً في ما مضىٰ من أيّام . وكان السيّد موسيس يعرف ذلك ، فجاء إلى أبي ، وتأبّط ذراعه ، وقال يُحدّثه في جِدّ ، وهو لا يعرف المزاح :

— سيّد جورج ! أنت تعرف مدىٰ الخسارة التي لحقتْ بي من هٰذا

السّيل . ولكن الأنكىٰ أنّ السّيل جرف دفاتر دُيوني المُستحِقّة لي على النّاس ، فليس يُمكنني بعدُ تحصيلُها ! (وسدّد نظرةً إلى وجه أبي) لقد فقدتُ كلَّ شيء . ولا أعرف ماذا أفعل . وجئتُك الآن آملاً أن تدُلّني على طريقةٍ أستردُّ بها دُيوني على النّاس ، ولا أشكّ في أنّك واجدٌ لي حلاًّ ، فقد كان أبوك تاجراً مرموقاً ، وإنّ عندك خبرةً في هٰذه الأمور .

لم يُعِرْ أبي كبير آهتمام لأقوال السيّد موسيس ، وأراد التّخلُّصَ منه . لكن السيّد موسيس كان مُتمسِّكاً به ولا يُريد إفلاتَه . وتراءىٰ له أن يَعْرِض على أبي ــ وكان هٰذا أقصىٰ ما يستطيع التّنازُل عنه ! ــ أن يمنحه عشرة بالمئة من مجموع ما يُحصّل من دُيونه المُضيَّعة !

ولمّا لم يجد أبي مفرّاً من أن يُبديَ رأياً ، قال :

ــ آسمعْ ، يا سيّد موسيس ! أنا لا أجد مُسَوِّغاً لكلّ هٰذا الحزن الذي تحمله في صدرك . أنت ، حقاً ، فقدت بضاعتك ودفاترك . ولكنّك كنت تبيع النّاس بضاعةً بأضعاف ثمنها ، لأنّهم يأخذونها بالدَّيْن . ولسوف تأتي غداً ببضاعة جديدة ، تبيعها لهم ، بالدَّيْن أيضاً ، وبأضعافٍ مُضاعفة ... وهٰكذا تقتطع من رِقاب النّاس كلَّ ما جرفه السَّيل من بضاعة ومن دفاتر دُيون ، فلم تبكي وتحزن ؟!

وآرتاح السيّد موسيس لهذا القول ، وقبّل أبي من جبينه عرفاناً بالجميل ... ومضىٰ ، وقد آعتزم أن يسلخ جُلود أهل القرية كلّهم !

موسيس محشيكيان أيضاً

ذات صباح ذاع ، في أنحاء البلدة ، أنّ أشجار التُّفاح في بُستان السيّد موسيس محشيكيان قد كُسِر بعضها بفأس ... الفاعل مجهول ، لكنّ آثار أقدامه بَدَتْ واضحةً في مواضعَ رَطْبَةٍ من الأرض .

على أثر ذلك أُصيب السيّد موسيس بنوبةٍ قلبيّة خفيفة ، سُرعان ما أُبَلَّ منها وزايله الخطر ! وأتاه المُداهِنون يُسَرُّون عنه ، فقالوا إنّ مُصيبته بسيطة لأنّ الأشجار المقطوعة فتيّة ، ولسوف تستأنف نُمُوّها قريباً وتعود إلى سابق عطائها .

لكنّ السيّد موسيس محشيكيان ، لا يسكت على ضَيْم . فذهب مع أنصاره إلى الشّرطة وقدَّم شكوىٰ ... ثمّ إنّ التّحقيقات تَوَسَّعتْ ، أملاً في التّعرُّف على الفاعلين ، حتى وصلت القضيّة إلى دمشق ، مقرونةً بآلتماسٍ من السيّد موسيس أن يُؤتَىٰ بكلابٍ بوليسيّة مع مُرَوِّضيها للكشف عن الفاعل .

وقد آستُجيب لهذا الآلتماس .

فبينما كنت أتمشّى مع بعض الرّفاق قريباً من بستان السيّد موسيس ، رأينا أمام المدخل سيارةً ، ولمحنا في داخلها شبحاً أو شَبَحَيْن يتحرّكان ، ثمّ أدْهَشَنا أنْ رأينا كلبين من الكلاب البوليسيّة ، أسودَ اللون وبُنّيّاً . وتجمّع النّاس هناك ، من الفُضُوليّين أمثالنا ، حتى زاد عددنا على المئة من شُبّانٍ وفِتيانٍ وشُيوخٍ ونساءٍ وأطفال ...

وظَهَر رجلٌ غريبٌ آقتاد الكلبين ، ومشى إلى جوار رجال الشّرطة ومعهم السيّد موسيس محشيكيان وعددٌ من أنصاره . وآرتفع صوتُ شرطيّ يأمر الحاضرين بالدّخول إلى البستان ، فمشينا إلى حيث الأشجارُ المقطوعة ... ولبثنا ننتظر فُصُول « التّمثيليّة » بفارغ الصّبر .

أخذ رجال الشّرطة ، يختارون من بين النّاس – بناء على بلاغ السيّد موسيس – أشخاصاً ، يَعْزِلونهم جانباً ويُجبرونهم بغلظةٍ على القُعود على الأرض ... بآعتبارهم مُشْتَبَهاً بهم !

وإذا ما آستعرضنا أسماء هٰؤلاء المُشتبه بهم ، رأينا أنّهم من خِيار النّاس وأبعدِهم عن الشُّبهة ، وهم :

* كيروبيك : متوسّط العمر ، ماهر في آستعمال الفأس ، لكنه طيّب وشريف .

* نِفْدون : مثقّف غارق في الكُتُب ، جارٌ لموسيس وقريبٌ له ، وهما على خلافٍ قديم مُسْتَحْكِم ،

* الحلاق باركيف : ربّما أُدْرِج آسمه بين المُشتبه بهم لمهارته في الحلاقة !

* جانو الاسكوراني : آشتبه به لما عُرِف عنه من هِواية التّجوُّل في

الليل حتى ساعةٍ مُتأخّرة ، أو لأنّه يكسر نِصال المَعاول ، أو لأنّه قام بآقتلاع أشجار التّفاح البرّيّة في بستانه ، مَن يدري ؟!

* نرسو : شاب هزيل الجسم ، ويبدو أنه آشتُبِه به لمهارته في تقليم الأشجار !

* الفاكهاني موسىٰ : لأنه لم يرضَ أن يبيع لمحشيكيان ممّا عنده من تفاح جبقجيان !

* آغة الصّخرة : آتّهمه موسيس محشيكيان ، كي يُثبِت للنّاس أنّ في آستطاعته أن يُرَكِّع حتى الأغَوات !!

بدأ الكلبان ، يقودهما مُروِّضُهما ، بالهمهمة والقفز هنا وهناك ، يتشمّمان رائحة الأرض المُعشِبة ، وبقايا الأشجار المقطوعة ، وكانت كثيرةً أشبهت المُحتَضَر الذي يلفُظ آخر أنفاسه ! والسيّد موسيس يُتابع وأنصارُه حركاتِ الكلبين بمزيد من الآهتمام ، في هٰذه التّمثيليّة المُضحكة التي تَصَدّر الكلبان بطولتها .

آرتفع صوتٌ من المُتفرِّجين :

ــ إنّ ما تفعلونه ، أيّها السّادة ، غيرُ قانونيّ ! أطلِقوا كلابكم لتبحث عن الفاعل في كَسَب كلِّها ، ولا تحصُروا الشُّبهة في هٰؤلاء السّبعة الأبرياء !

كان المُعترِض هو سركيس بولاديان . ولكنْ من تُراه يُصغي إليه ؟ لقد ذهبتْ صَرختُه بَدَداً .

وأخيراً جاء المُروِّض المُتباهي بأحد كلبيه ، الأسود ، وقرّبه من الذين أُجبِروا على أن يقتعدوا الأرضَ بآستكانة ، وجعله يتشمّم كلَّ واحدٍ منهم . ثمّ أطلقه ليشمّ العُشب . وبعدئذٍ أعاده إلى المُشتبه بهم ، فمرّ

عليهم ، وأخذ يشدّ أثواب بعضهم ، فكانوا ثلاثة هم : كيروب ، ونِفدون ، وجانو .

أمسك المُرَوِّض بكلبه ، وقد ثَبَتَت التُّهمة على هٰؤلاء الثلاثة . ونُقِل الخبر إلى السيّد موسيس وأنصاره ، فأقبلوا عليهم يرشقونهم بنظراتٍ مُتشفيةٍ وهم في هٰذه الحالة من الذُّلّ والمَهانة .

وتفرّق الجمهور . وآعتُبرت القضيّة مُنتهية . ولكنّ أحداً لم يقتنعْ بأنّ أيّاً من هٰؤلاء الثّلاثة يُمكن أن يقترف هٰذه الجريمة . وعَجِب النّاس أن يُترك مصيرُ بني البشر بين أنياب حيواناتٍ حمقاء .

*

ومرّت الأيّام . وتبخّرت القضيّة – التي آعتُبرتْ يوماً ما قضيّة ! – فلم تَثبُت التُّهمة على أحدٍ من المُتّهمين الذين أُخلِي سبيلهم . والأشجار لم ترجعْ إلى سابق عهدها ... ما بقي هو العُزلة التي فرضها السيّد موسيس على نفسه ، وبُغضُ النّاس له الذي آستحقّه على فعلته .

ويعود السيّد موسيس محشيكيان إلى أبي لآستشارته كرةً أخرىٰ ، يقول : سيّد جورج ! لو كنتَ مكاني ماذا كان في وُسْعك أن تفعل ؟

فيردّ أبي : سيّد موسيس ! منذ الأزل والنّاس يرتكبون أخطاء دون تفكير ! أنتَ فعلت ما فعلت ، فبذرتَ البغضاء في قلوب معارفك ، ولقّنتَهم الرّغبة في الآنتقام ! إني لأعرف أنّ ما وقع كان مُفتعلاً لا أساس له ، كما أعلم أنّ الكلاب تشمُّ رائحة الدّم لا رائحة العُشب !

وراح موسيس يعتذر : أمر وحصل !

وأبي يقول : لو كنتَ أطعمتَ كلباً في بستانك ، بدلاً من أن تأتي بذَيْنِكَ الكلبين ، لما كان ما كان !!

بابيك ذو العين الصيابة!

I

كان يقطن ، في حيّنا ، جارٌ يُدعىٰ « سيروب مكرديجيان » ، نُلقّبه بـ « بابيك » ، هو مُختار الطّائفة البروتِستانْتيّة في كَسَب ، والأخُ الرّوحيّ لأهل البلدة ، الذي يهتمّ بأفراحهم وأتراحهم . وكان رجلاً طيّباً ، ونشيطاً ينهض إلى عمله في الصّباح قبل شُروق الشّمس ، مُولَعاً بالأدب ، يُتابع أخبار البُطولات والتّضحيات بلذّةٍ فائقة ، ويهتمّ إلى حدٍّ كبير بالماضي وحاضرِ شعبه الأرْمَنيّ .

وكان يتمتّع ، بعد ذلك كلّه ، بموهبةٍ فِطريّةٍ لا يدَ له فيها : كانت ، في عينيه الزّرقاوَيْن ، قوّةٌ جاذبةٌ خارجةٌ عن إرادته ، تجذب كلّ مَن حوله مِن ضِعافٍ أو عُتاة ، كما تجذب الحيوانات ، والنباتات أيضاً !

II

في صباحِ يومٍ من أيّام الأحد ، كانت زوجته الشّابّة تُصلِح من شأنها أمام المرآة آستعداداً للذّهاب وإيّاه إلى الكنيسة ، وقد أضْفَت الزّينة

عليها نَضارةً وجمالا . في تلك اللحظة عاد زوجها من الإصطبل بعد أن فرغ من العناية بحيواناته ، فما كان منه إلا أن أبدىٰ إعجابه بجمالها ، وأخذ يتغزّل بها ويُسرِف في غَزَله ... ولكن قبل أن يُكمِل كلامه ، كانت الدّنيا تدور في عينيها ، وترتمي على السّرير مَغْشِيّاً عليها !

ومن حُسن الحظّ أنّ بابيك كان يحتفظ بدواءٍ ناجعٍ لمثل هٰذه الحالات ، قد آختصَّتْه به العنايةُ الإلٰهيّة دون خلق الله أجمعين : هو أنْ يقتطع فِلذةً من حِزامه الجلديّ ، ويحرقه ، ويُبخّر به المريض ، ناشراً سُحُب الدُّخان الأسود حوله ، وهو يتلو بعض التّعاويذ ... حتى يَبَلّ المُصاب مّما هو فيه !

وهٰذا عَيْنُ ما فعله سيروب مع زوجته .

وبعد يومين عُوفيتْ ، ونهضتْ تَدُبّ على قدميها ، مُعترفةً بفَضْل زوجها ، وقد آزداد تقديرها له .

III

ومن بركاته أيضاً ، أنه كان ، يوماً ، يتجاذب أطرافَ الحديث مع بعضِ أصحابه في فِناء النّادي ، فلمح عِجْلاً في قِمّة الجبل ، فقطع حديثه قائلاً :

ــ يا شباب ! هل تُريدون أن تأكلوا اليومَ شِواءً وفيرا ؟!

أجاب « الحاجي بيدروس دميرجيان » :

ــ ومن ذا الذي يرفضه إذا صحّ له !

وأضاف « ميشيل القاراداشي » :

ـــ ومنّي النّبيذ المُعتّق !

أمّا أبي فقال :

ـــ بماذا تُفكّر ، يا بابيك ؟ أتُراك تُريد أن تخرب بيت أحد في هٰذا الصّباح ؟!

فأجاب بابيك :

ـــ أبداً ! ولكنّها هِبَةٌ من الجبل ، وبقدرة الله العَلِيّة . فلْتَتَضُّد الموائد ، وليَعُمّ الفرح !

ثمّ وضع كفّه اليُسرىٰ على جبهته ، وصَوَّب نظرةً عميقة إلى العجل ، الذي يرعىٰ على قمّة الجبل .

ثمّ بدا وكأنّ سهماً ، أو رصاصةً آخترقتْ العِجل ، فإذا المسكين يتدحرج من القمّة إلى الوادي ، ويَلفُظ أنفاسه الأخيرة .

IV

« مآثره » كثيرةٌ لا حَصْرَ لها .

أذكر جيّداً أنه كانت ، في فِناء فندقنا ، شجرةُ إجّاصٍ مُزْهِرةٌ في ذلك الرّبيع . وكان بابيك يتردّد علينا ليزور أبي الذي كان من أعزّ أصدقائه . فجاءنا في ذلك اليوم وهو يهزّ سِرواله الأسود عاقداً يديه خلف ظهره . كان أهل القرية يُحبّونه ، بقدر ما يتشاءمون من « مآثره » ، وهو الذي يحمل في داخله قوّةً خفيّة ، هَدّامة ، ليس يُدركها إنسان !

وأذكر أنّي ، لحظةَ لمحتُه قادماً ، آنتابني الخوف ، وعَدَوْتُ إلى الدّاخل أتشاغل بترتيب حقيبة المدرسة . فترامىٰ إليّ صوتُه يُردِّد :

ـــ ما شاء الله ! ما شاء الله !

أَطْلَلْتُ من النّافذة .

رأيتُ أبي وأمّي ومعهما بابيك ، يترشّفون القهوة تحت شجرة الإجّاص . راح قلبي الطّفوليّ يخفق بشدّة . أصَخْتُ ، فسمعتُ بابيك يقول ، واصفاً الشّجرة وقد آرتسمتْ على وجهه أمارات الأندهاش :

ـــ حقّاً ، إنّ إجّاصتكم كالعروس المَجْلُوّة ، تستحقّ أن يُثنىٰ عليها وأن تُحبّ !

ومع أنّ أهلي يعلمون علمَ اليقين ما لجارنا من عين « صَيّابة » ، فإنّهم لم يهتمّوا بقوله ، وبَدَوْا كأنّهم لم يسمعوا ، لا ولا طالبوه بفِلذة يقتطعها من حزامه ليحرقوها في ظلّ الشّجرة حالاً !

وحلّتْ المُصيبة !

ففي صباح اليوم التّالي ، كانت إجّاصتنا ، العروس المجلوّة ، قد ذَبُلَتْ ، وهي تجترّ أشعّة شمس الصّباح الوانية . وأدركها اليَبَاس ، بعد يومين إثنين ، فأشْبَهَتْ عروساً مخدوعةً آثرت أن تتجرّع السّمّ وتموت .

وعمّ الحزن بيتَنا . فجلستْ أختي الكبرىٰ تحت الشّجرة اليابسة تُبكيها بحُرقة ، ولم أتمالك نفسي ، فحَذَوْتُ حَذْوَها . وجاءتْنا أُمّي ، تتلفّت حواليها ، وتندُب الشّجرة :

ـــ آه ، يا شجرتي الوحيدة العزيزة !

وترفع يديها ، وكأنّها تتوسّل إلى الله أن يُحييها بمُعجزةٍ من عنده . وأمسكتْ بيدينا أنا وأختي ، تُحاول تهدئتنا :

ـــ آهدَؤوا ، يا أولادي ! سيغرس أبوكم شجرةً بدلاً منها .

فصرختُ من ألمٍ عبر دموعي المُنهمرة :

ـــ ولكن لماذا لم تُبخّروا الشّجرة فوراً ، يا أُمّي ؟!

وأمّا بابيك ، فقد كان يسير في دُروب القرية مُطأطِئاً رأسه خجلا !

V

في يومٍ آخر ، نسي بابيك نفسه ، فآنحنى على طفلٍ – في بيتٍ يزوره – وقبّله .

وبعد عودته إلى بيته فَطِنَ إلى ما فعل ، فآقتطع فِلذة من حزامه ، وبعث بها إلى أهل الطّفل ليُبخّروه ، فآستقبلوها كالخبز السّاخن .

ونجا الصّبيُّ من موتٍ مُحقّق !

VI

ذات يوم ، كان « جيمس الكوركوني » يمتطي حصانه المُطَهّم ، قادماً إلى كَسَب لشراء بعض حاجاته . وآضطُرّ في طريقه إلى المُرور ببيت بابيك . وخوفاً من مُصيبةٍ تحلّ به أشاح بوجهه عن باب البيت .

ولكنْ أنّى للذُبابةِ أن تهرب من عينَي بابيك ؟

لقد برز له هٰذا ، رافعاً ذيل سرواله ، وقاطعاً عليه طريقه ، وهو يقول :

ـــ السّلام لله ، يا جيمس ! إلى أين يُمكنك أن تطير ؟!

ولم تمضِ دقائقُ خمس ، حتى كان الحصان – وعلى ظهره جيمس – يتدحرج على طريقٍ وعرة !

VII

كان مُختارنا بابيك إنجيلياً حمياً ومُولَعاً بالكنائس .

وكان من حُسن حظّ القساوسة والواعظين أنّ أحداً منهم لم يَحظَ بنظرة آستحسانٍ منه ، ذلك أنّ رُعاة الكنيسة لم ينجحوا – وهم يُقدّمون مواعظهم – في أن يستلفتوا إليهم نظرةً واحدةً من عيني بابيك الجميلتين !

VIII

وقد قُدّر للبائع المُتجوّل « غازار » أن يقترض يوماً من بابيك خمسين ليرة ، على أن يَردّها إليه بعد شهرٍ من الزّمان .

ثمّ إنه مضى شهرٌ ، وشهرٌ آخر ، وغازار لم يعُد من سفرته ما بين كَسَب و« جسر الشُغُور »

ولكنّ غازار لا يُمكنه أن يَفلِت من يدَيْ بابيك .

لقد علم ، في مَوْهِنٍ من الليل ، أنّ غازار قد عاد إلى كَسَب . فتوجّه ، في تلك السّاعة المُتأخّرة ، إلى بيته ، عاقداً يديه خلف ظهره ، صارفاً بأسنانه ، وقرع عليه بابه قرعاً شديدا .

ويستقبل غازار المُتعب ، الذي لمّا يَنفُضْ عنه وَعْثاء السّفر بعد ،

سيروب مكرديجيان ، هاشّاً باشّا . وأخذ يشكو له الخسارة التي مُنيَ بها في هٰذا الأُسبوع الأخير وحدَه .

فقال بابيك مُقرّعاً :

ـــ غازار ! أنا لم آتِ إليك لأستمع إلى قصصك ودواوينك ! ثمّ إنّي لا أفهم في التّجارة ، ولْتتسَلِ بذُهنك وتَنقّلِ ! سَدِّدْ لي حسابي ، ودَعْني أذهب !

قال غازار :

ـــ أمْهِلْني مدّة ، يا أخ بابيك . نحن أهل . لسوف أُرتّب أموري وأدفع لك .

ألحّ بابيك :

ـــ لن يحصل شيء من هٰذا قطّ . أنت تعرف جيداً أننا في أيّام عيد . لن أُغادر المكان حتى آخذ حقّي .

قال غازار وهو يَصْطَنع سَعْلةً جافّة :

ـــ ليس عندي ما أُعطيك إيّاه ، يا صديقي !

فتَوَعَّده بابيك :

ـــ طيّب ! لسوف تجد غداً بغلك ، بابَ رزقك ، نافقاً ، وتدفنه بيديك !

ما إنْ سمع البائع المُتجوّل ذلك ، حتى قفز من مكانه ، وترك سيروب مكرديجيان حيث هو ، وآندفع إلى خارج البيت .

ووصل إلى « هوانيس نرسيسيان » . وأخذ يشرح له الأمر الفظيع .

وإذ سمع هوانيس نرسيسيان من غازار حكايته ، وأدرك مدىٰ خوفه على بغله ، آبتسم ... ولم يعدْ في آستطاعته أن يردّ طلبه ، فناوله الخمسين الليرة ، وهو يقول :

ـــ إنّي أعرف قيمة بغلك عندك ، يا غازار . أتمنّىٰ لك التّوفيق من أعماق قلبي .

IX

وذات يوم ، كان سيروب مكرديجيان يسير في القرية في طريقٍ وعرة . فصادف آمرأةً حُبلى يعرفها . فرَشَقَها ، من طرف عينيه ، بنظرةِ شهوةٍ سال ، لجسمها المُنتفخ ، لُعابُهُ ... ثمّ تابع طريقه صامتاً .

وما كادت المرأة ، السّيّئة الحظّ ، تبلغ نهاية الطّريق ، حتى فاجأها المَخاض شديداً ، ووقعتْ على الأرض تطلب العون .

هٰهنا تحرّكتْ ، في صدر بابيك ، إنسانيّته ، فسارع إلى الجوار يشرح لهم ما ألمّ بالمرأة ، فهَرَعوا إلى إسعافها ، وحملوها إلى أقرب بيت ، حيث وَلَدَتْ ولادةً مُتعسِّرة لم تَنْجُ منها إلا برحمة الله .

X

ما زلت ، حتى اليوم ، في حيرةٍ من هٰذه القوّة الهدّامة التي يتّصف بها ذوو العُيون الزُّرق على الأغلب ، ولم أتوصّل بعد إلى تفسيرٍ لها ، وإن كنت أعتقد أنّها عَطيّةٌ من الله ، ربّما لينتقم بها من عباده الضّالين !

وإنّي لأجزم ، الآن ، بأنّ أبي كان يُداري هٰذا الـ « بابيك » دَفعاً لأذاه .ولأعترف ، هنا ، بأنّ لسان أبي لم يكن بأقلّ أذىً من عين سيروب مكرديجيان !

في أحد الأيّام اتّفق الإثنان – أبي وسيروب – على أن يتوجّها إلى قرية للتُّركان ، قريبة ؛ كانت لأرمنيٍّ – يُقيم في أمريكا – أرضٌ فيها ، قَصْدَ الاستفسار عن سير العمل في تلك الأرض . وقد دخل الرّجلان القرية ، على حصانين ، وهما مُسلحان ، فَبَدَوَا مثل الثُّوار !

وقد سبقهما إلى النّاس هناك أنّ إثنين من الثّوار هما في طريقهما إلى القرية ، فارسَيْن مُدَجَّجين بالسِّلاح !

كان مُلّاك معظم بساتين هٰذه القرية من « الأغوات » الأرمن ، على حين كان العاملون فيها من الفلاحين التُّركان . وأمّا الأغوات الآخرون ، فكانوا يتلبّثون العامَ كلّه دونما عمل ، انتظاراً لموسم الحصاد الذي يتلقَّوْن واردَهُ وهم ينعَمون بالرّاحة والكَسَل .

على تلك الصّورة وصل بابيك وأبي إلى القرية . وتَوَجَّها إلى المزرعة التي يملكها الأرمنيُّ الأمريكيّ . وخرج لاستقبالهما فلاحٌ تُركانيٌّ من معارف بابيك ، يُدعىٰ « حسن » ، بصفته واحداً من أُسرة العاملين في هٰذه القرية .

نزل بابيك عن حصانه ، وهو يقول للفلاح الطّيِّب :

ـــ شكراً لله لأنّي أراك في صحّة جيّدة . أرجو من الله أن يَطرَح البَرَكة في الحقول والبساتين والكُروم والخُضار ، وأن تكون أنت والمزرعة في ألف خير .

أجابه الرّجل ، بعد المُصافحة :

ـــ لا تشغلْ بالك ، آغا سيرو ! نحن نقوم بواجبنا في العناية بالمزرعة على أحسن ما يرام ، في الليل وفي النهار . أنتم غير موجودين معنا ، لكنّ عين الله ترقُبنا . المحصول جيّد ، على ما يبدو ، في هٰذا العام .

قال بابيك :

ـــ الله يعطيك العافية ، يا ولدي يا حسن .

ثم تلفّت حواليْه ، راسماً في خياله حُدود المزرعة الشّاسعة ، المُسَلَّمةَ إليه مَقاليدُها ، مُتَمَلِّياً منها النّظر بعينيه الزّرقاوين ، ثمّ تَوَجَّهَ بخطابه إلى الفلاح :

ـــ أودُّ أن أقضي الليلة في المزرعة .

ولّما كان أبي حديثَ عهدٍ بهٰؤلاء القوم ، فقد ترك الأمر لبابيك ، ولم يعترضْ على آقتراحه .

أجاب حسن باسماً :

ـــ وجودكم بيننا فرحة كبيرة تبعث فينا السّرور . سنستمتع بأحاديثكم ونستفيد من تجاربكم في الحياة ، ونهتدي بتوجيهاتكم .

ثم قام لإعداد التّرتيبات اللازمة لإيواء الفَرَسَيْن في الإصطبل وتقديم العَلَف لهما ، وتهيئة غرفةٍ مريحةٍ لينام فيها أبي والعمُّ بابيك .

في صباح اليوم التّالي آستيقظ بابيك مع الفجر ، حسب عادته التي لا تتغيّر . ونزل وحدَه إلى البساتين القريبة يتفقّدها . ولّما كان يُحبّ

الخِيار حُبّاً جَمّا ، فقد طاب له أن يتملّىٰ النّظر من مَشكَبةٍ من مساكبه . وقطف خِيارةً ، وجعل يُقشّرها ، ثمّ أكلها بتلذُّذ .

وبعدئذٍ سار لمُعاينة كُرُوم العنب المُقابلة . ثمّ دار حول حُقُول القمح الذّهبيّة اللون ، وكأنّه يُريد لها أن تستيقظ من النّوم . وانتقل إلى حقل الجَبَس (البطّيخ الأحمر) ، وأخذ يتلمّس البطّيخات واحدةً بعد أخرىٰ ... ليجد نفسه ، أخيراً ، في بساتين الإجّاص والتّين والتّوت ، فأُخِذ بوفرة ثمارها ووارف ظِلالها .

وبعد أدائه هٰذه المَهمّة اللازمة ، عاد إلى غرفته وهو يُحسّ راحةً ، وانضمّ إلى أبي ، ونادىٰ حسن ليقول له :

ــ أُهنّئك على جُهُودك وعلى كبير عنايتك . واظبْ على عملك المُنتج ، عافاك الله . إنّ الأرض في حاجة إلينا وإلى عَرَقنا . العَرَق غذاء للأرض . الأرض لمَن يعمل فيها ، وإنّها لتُسعِد القائمين على خِدمتها .

كان حسن يقف أمام بابيك مثل تلميذٍ مُجِدّ مُطيع . وتلفّظ لسانُه بكلماتِ شُكرٍ ساذَجة ، ومضىٰ لإعداد طعام الفَطُور والقهوة .

عند الظُّهيرة ، انتهتْ المَهمّة ، في مُعاينة الأرض والبساتين ، وإعطاء التّوجيهات ، وتدقيق الحسابات . واستعدّ بابيك وأبي للعودة إلى كَسَب . ولأنّ بابيك لم يَشبَع من الخِيار ، فقد رغب في أن يأخذ منه عشرة كيلو إلى كَسَب قُبَيل امتطائه صَهوةَ جواده .

وذهب الفلاح بسَلّةٍ إلى حقل الخِيار ، وعاد بها مملوءةً . فلمّا أخذ يَزِن الخِيار ، وحتى يكون الميزان مضبوطاً ، راح يبحث عن حِجارةٍ صغيرة يُكمِل بها الوزنة ، فلم يجدْها ، فأخرج موساه ليَقْسم الخِيارة نِصْفَين .

شعر بابيك ، وهو ينظر إلى ما يفعل حسن ، وكأنّ سهماً يخترق قلبه . وهمّ بأن يقول شيئاً ، لولا بضعُ كلماتٍ من أبي ، باللغة الأرمنيّة ، كَبَحَتْ جِماحَه ، وصبرَّته لحظات . فتمالك بابيك نفسه ، ثم ما لبث أن قال وهو يرمُق حسن بعينيه الزّرقاوين :

ـــ وَيْحَكَ ، يا حسن ! العمىٰ في عينيك ! ليأخذْك الشّيْطان ! مَن رأىٰ خِيارةً تُقسم في الميزان ؟ لسوف أُلغي كلَّ اتّفاق بيني وبينك !

قال حسن ، وقد بدا عليه الاضطّراب :

ـــ لا ، يا سيرو ! في الدّنيا عَدْل . أنا سَفَحْتُ عَرَقاً وبذلتُ جُهداً . . وإنّي أخاف المواسم المُجْدِبة !

ـــ لِيَبْتَلِكَ الله بالمواسم المُجدبة ، يا حسن ، يا ظالم ! لتأكلِ الدّيدانُ بطنك !

قال بابيك ذلك وهو ينثُر الشّرّ من عينيه في أرجاء المزرعة كلّها .

ثمّ أطلق ، هو وأبي ، العَنان لفرسَيْهما ، باتّجاه كَسَب .

في مساء اليوم التّالي ، جاء حسن إلى كَسَب على حصانٍ أسود ، وتَوَجّه إلى حَيّنا ، وطرق باب بيت جارنا بابيك ، وهو في غاية الحزن .

وبابيك حزر ما جاء من أجله حسن . لذلك أجلسه بجانبه ، وراح يُهَوّن على الفلاح البخيل ، ويُواسيه بعباراتٍ لطيفة .

وعرض حسن أمره ، قال :

ـــ لقد مات حقل الخِيار ، يا آغا ! والدُّخان الأسود يتصاعد من الكُروم ! أما القمح فيبكي ! إنّ الموت يُخيّم على المزرعة بأُسْرها .

أعلن بابيك :

ـــ رُحْ ، يا حسن ! يشهد الله أنّ هٰذا جزاؤك هٰذا العام . آفعلِ الخير تأتِك السّعادة !

XI

ذات مساءٍ شَتَويّ ، كان بابيك عائداً إلى البيت عندما بدأ مطرٌ غزيرٌ ينهمر . ولمّا لم يكنْ يحمل المِظَلّة فقد آضطُرّ إلى الألتجاء إلى « القهواتي ميناس » .

كان العمّ ميناس ، القهواتي ، في تلك اللحظة يضُمُّ إلى صدره رَبابته ذاتَ الأوتار الثّلاثة ، يعزِف ويُغني إحدىٰ الأغاني التُّركيّة القديمة ، وحَطَبُ السِّنْدِيان يَئِزّ في المدفأة .

آقترب بابيك من المدفأة ، ليُجفّف سرواله المُبلّل . فرمقه القهواتي بطرف عينه ، دون أن يتوقّف عن العزف والغناء ... بل إنّه أخذ يُبالغ في غنائه الشّعبيّ الحزين .

هتف بابيك ، وهو جالسٌ على الكرسيّ :

ـــ يكفي ، يا أخ ميناس (ويُقرِّب يديه الباردتين من المدفأة ، وهو يَفرُك إحداهما بالأُخرىٰ) لماذا تتناسىٰ أغاني كوميداس الخالدة ومعزوفاته ، وتجري وراء الغناء التُّركيّ ؟

فيُجيب ميناس وهو يُخَفّض طبقة العزف :

ـــ آسمعْ ، أيّها القَرويّ ! لقد آقتبس الأتراك منّا هٰذه النّغْمة ! إنّهم آقتبسوا الألحانَ والكلماتِ من أُغنياتٍ لنا كثيرة . فالأتراك مُعتادون على

ذلك . أخذوا وطنَنا وما يضمّه من الأراضي ! آسمعْ ، يا بابيك ، إنْ كان لك قلب ، وسوف تُجدِّد بالسّماع نفسك !

فيُؤكّد سيروب مكرديجيان :

ـــ لا ، لا أُصدِّق . غناؤك تُركيّ ، لا مِرَاء في ذلك ، يا ميناس . كُفَّ عنه !

لكنّ العمّ ميناس ، المُنتشي بغنائه ، لا يُبالي بكلمات بابيك الأخيرة ، وكأنّه لم يسمعْها .

وهناك ، في زاويةٍ مُعتِمة ، يجلس « السّنيور » مُنسجماً ، أمام قَدَح العَرَق وصحنِ سمك السَّردين ... تَخال أنّه ينتظر الدّقائق الأخيرة من حياته .

وأمّا صانعُ السّلاح ، « الحاجي أرتين » ، صديق القهواتي الحميم وزَبونه الدّائم ، المُلطّخُ الكفّيْن بالسُّخام بحُكم عمله ، فكان جالساً على كرسيّ ، واضعاً رِجلاً على رجل ، غارقاً ـــ كما يبدو ـــ في ذكريات الشّباب .

آنتصب بابيك ، وصاح في غضب :

ـــ يكفي ، أخ ميناس . بحَسْبِك . ما تُراه يقول الذي يسمعك ؟

لكنّ القهواتي لا يُعيره أيّ آلتفات ، مُتابعاً غناءَهُ التُّركيَّ الذي يبعث على الحُزن ويجلُب النُّعاس .

المطر يبكي في الخارج ، والقهواتي يبكي في الدّاخل .

فجأةً ، تنطلق من القهواتي ، من فمه المُستخفي تحت لحيته الكثّة ، في سياق الأغنية ، الكلماتُ التّالية :

كنتَ بطلَ تلك الحُروب الضّارية
سقطتَ على طريق أرضك الذّهبيّة الملتهبة
ويحمل مَلَكٌ من نورٍ روحَك
فطُوبىٰ ، وألفُ طُوبىٰ ، لأمثالك !

وتنزّلتْ هٰذه الكلماتُ المُؤثّرة ، كالنّور في روح العمّ بابيك إذ تَلقّطَها سمعُه ، وشعر بتبدُّلٍ غريب . فاقترب من هٰذا الشّيخ الفنّان ، يقول مُتأثّراً :

ـــ الحقُّ معك ، يا عزيزي ! تابعْ .

ويأخذ العمّ ميناس من قَدَحه رَشْفةً . ومن عينيه ، السّوداوَيْن كالفحم ، يُرسل نظرةً إلى عينَيْ بابيك الزّرقاوين الصّافيتين حتى تبلغ أعماقها ، ثم يُتابع ، غناءً وعزفاً :

أتيتُ لأنثر ورداً على قبرك
جاءت أمُّك لتنثر الدّموع
فليبقَ اسمُك على مدى الزّمان
لأنّك قضيتَ فداءً لوطنك !

فيهتف بابيك :

ـــ حُيّيتَ ، يا أخ ميناس ! ما كنتُ أعرف أنّك تتمتّع بهٰذه الحَيَويّة

كلَّها ! ولكنْ يَحْسُن أن تُغنّي بالأرمنيّة أحياناً ، وعندئذٍ تعلو مكانتُك أكثرَ فأكثر .

ويُجيب القهواتي :

ـــ يا صديقي ! الفنّ لا يعرف أبداً التّفرقة بين العَدُوّ والصّديق . علينا أن نُقابل ، وبمزيدٍ من الثّقة بالنّفس ، الخيرَ بالخير ، وأن نُقابل أيضاً الشرّ بالإحسان والتّسامح ، فننتصر عليه .

وتبيّن بابيك ما في قول ميناس من صَواب ، فكَفَّ عن مُجادلته ، وهو الذي يعرف أنّه يحمل على كتفيه رأس فنانٍ ووطنيٌّ عنيد ... وآستأذن في الأنصراف ، وتمنّىٰ ليلةً سعيدةً للجميع ، وغادر المكان إلى بيته .

ومرّ زمن ، بعد تلك الليلة ، لم تُصِبْ فيه عينا بابيك أحداً بشرّ !

XII

لكنّ ذلك لم يَدُمْ طويلاً .

فقد سمع أنّ « أُوصانّا » ، زوجة « سركيس بولاديان » ، تُعَرِّض به في كلّ مكان . فتصدّىٰ لها صباحَ يوم ، وقد جاءها يهزّ سرواله ، ويقول :

ـــ يا جارتي ! أودّ أن أعرف لماذا تُعَرِّضين بي أينما ذهبتِ وحيثما حَلَلْتِ ؟!

فَنَبَرَتْ المرأةُ في وجهه وهي ترشُقه بنظرةٍ من عينين كعينيْ نَسْر :

ـــ آنظرْ إليّ ! بحسْبِكَ ما تجلُبه للنّاس من مصائب ! لقد أصبحتْ شُرورك كالمرض ، مثل وباءٍ سَرىٰ في البلدة ! لتكنْ في قلبك ذرّةٌ من

الرّحمة ، يا رجل ! تُعطي فِلذةً من حزامك لهذا ، وتمنعها عن ذاك ! قد يُقْبَل التّمييز في أمورٍ أُخرىٰ ، وأمّا في إعطائك هٰذه الفِلذات ، فلا ! ثمّ ... ما تُراه مصيرُ آبِننا ؟ فإنّ حاله تسوء منذ ثلاثة أيّام ، وهو يُلازم الفراش ، لا يأكل ولا يشرب !

فأجابها بابيك مُتغاضياً :

ــ أَوْلىٰ بكِ أن تستدعي طبيباً يُعالج آبنكِ ، لا أن تعتبريني مسؤولاً عن كلّ أذىً يحُلّ بأهل البلدة ، يا أوصانّا !

فزَعَقَتْ به المرأة :

ــ إنّ في عينيك رماداً ، فضعْ على الأقلّ نظّارة سوداء تُخفيهما ! لو كنتُ إيّاك ، لفَقَأْتُ عينيّ ، وآنزويتُ في ركنٍ بعيداً عن النّاس ! أعمالك ما عادت تُطاق . آتّقِ الله يا رجل !

فيُجيب بابيك بلهجة الواثق :

ــ قوّتي من عند الله . فلماذا أتردّد في مُلاحقة الشّرّ والحسد والكبرياء ؟! وأيّ ذنبٍ لي في ذلك ؟ هل ترينني مُداناً بمحبّتي للحقّ والخير والجمال ؟!

فتُهيب به أوصانّا :

ــ لا تتحذلقْ ! هيّا أعطِني فِلذةً من حزامك أُبخّر بها الولد !!

XIII

... ويفتح ، في يومٍ ، أحدُ أبناء البلدة ، المُلقّب بـ « كومون » ، دفتر الدُّيون القديمة ، ويصرُخ في وجه بابيك غاضباً ... فيتجمّع النّاس

حول المُتخاصمَيْن ، قادمِين من كلّ صَوب ، وإذا السُّوق يصبح أشبهَ ببحيرةٍ مائجةٍ وقد كانت ساكنة . ويرى كومون أنصاره حوله ، فيشتدّ عزمُه ويرتفع صُراخه أعلى فأعلى ، وهو يقول :

ـــ بحَسْبك ، يا بابيك ! ما زال دَيْنُك على ما هو عليه منذ سنين . قولوا يا عالم يا هو : أإلى هٰذا الحدّ يُمكن أن يتحجَّر الضّمير ؟ كيف يستطيع قلبٌ أن يتحمَّل دَيْناً غطّاه الصّدأ ؟

فيقول بابيك بهدوء :

ـــ لا ، لا ، يا عزيزي ! لا داعي لهذا الغضب كلّه . إنّي حدّثتُك مرّاتٍ من قبل ، وأُذكّرك الآن ، لِمَ هٰذا النّسيان ؟ إنّي جعلتُك في فئةٍ من النّاس ، يا كومون ! لقد أبقيتُك مع أُسرتك بعيداً عن المصائب التي تُسبِّبها عيناي . لذلك أنصحك بألا تُجادلني بعد الآن فتخلط بين القديم والحديث ، خاصّة هنا ، في قلب السّوق ، حيث ثمّة ألفُ أُذن وألف نيّةٍ سيِّئة ! ثمّ آعلمْ ، يا صاحبي ، أننا لا نتعرّف على القديم ألبتة . آطلبِ الجديد فقط ، تَنَلِ السّعادة .

فيهتف كومون :

ـــ طيّب ! آفعلْ ما يحلو لك . ولا تظُنّنّ أنّ حسابنا القديم يُشْطَب بهٰذه السُّهولة . هاتِ قليلاً من قُرّة عينيك ، وأنا أتنازل لك عن دَيْنك القديم !

XIV

كانت أيّام « سيروب مكرديجيان » ـ الذي نُلقّبه « بابيك » ـ في بلدتنا ، في صِباي وشبابي على وجه الخُصوص ، أيّاماً بهيجةً تنطوي على ذكرياتٍ عذبة .

كانت حياته ، وكذلك ما يصدُر عنه من تصرُّفات ، تتّسم كلُّها بطابعٍ مُتمَيِّزٍ يسير على مِنْوال ، بمَرَحه ، وبما يُقدّم من العون لكلّ مُحتاجٍ في أيّ مكان .

وها هو ذا يقطع العمر ، بهُدوءٍ ، في قِطار الزّمن ، إلى الشّيخوخة ، مُخلّفاً ، للجيل اللاحق ، ذكرياتٍ عن الشّباب وتجاربِ الحياة وتحمُّل المَشاقّ .

ولكنّها شيخوخةٌ لم تُطُلْ على بابيك : ذلك أنّه ، بعد أزمةٍ قلبيّةٍ أقعدتْه أيّاماً ، أُطبق جفنيه ، وإلى الأبد ، على عينَيْن ، كانتا بلون السّماء ، صَيّابَتَيْن حقّاً ، ولكنّهما لا تَخْلُوان من وُدّ !

في بيتنا ضبع

حدّثنا أبي بغِبطةٍ وسُرور ، قال :

تَمَيَّز شتاءُ ١٩٤٥ بهُطول ثُلوجٍ مُتواصلةٍ غطّتْ حُقولَنا وجبالَنا وغاباتِنا ، وظَلَلْنا طَوالَ الشّتاء قابعين تحت ذلك الغِطاء النّاصع البياض .

كان الثّلج لا يكُفّ عن الهُطول ، خُصوصاً في الليل ، يتخلّله المطرُ ، والرّياح التي تهُبّ وتعوي في الظّلام عِواءً يُذكّر بعواء قطيعٍ ذئابٍ جائعة تُريد أن تقتحم قريتنا الآمنة الوادعة .

كنّا نستيقظ في الصّباح على البرد القارس . وبعد أن نوقِد النّار ونحتسي القهوة ، أخرُج إلى صحن الدّار ، فأتوجّه إلى خُمّ الدّجاج ، أفتح في الثّلج ممرّاً أسير فيه قبل أن أُزيح الثّلج عن الخمّ ، وأضع الحبّ للدّجاج ، ثمّ أذهب إلى السّوق لشراء حاجاتِنا اليوميّة ، وأعود بعد ذلك إلى تكسير الحطب وتقطيع العَلَف للبقرة . وأُساعد زوجتي في إشعال التّنّور لخَبز الخُبْز . ثمّ أعود لأُطعم البقرة وأقوم بحلْبها . بعد ذلك أصعد إلى

السّطح ، حيث أُزيح الثّلج المُتراكم فوقه . ثمّ أنزل إلى الدّار للاّهتمام بأولادي وشُؤوني البيتيّة ... إلى غير ذلك من الأعمال اليوميّة التي لا نهاية لها . وبعد هٰذا العَناء ، الذي يستغرقُ منّي النّهار بتمامه ، أجلس في المساء لأنعَم بالرّاحة : فأضع قَدَحَ العَرَق أمامي ، وأتلبّث مُنتظراً تَوارُدَ جيراني إليّ للسّهر عندي ، من غيرِ ما دعوةٍ بطبيعة الحال !

في كلّ ليلةٍ ، حتى إنْ بلغ ٱرتفاعُ الثّلج قامةَ إنسان ، لم يكن نَجّارُ كَسَب وملحقاتِها ، المشهورُ ، « يروانت أفاريان » لينقطع عن زيارتنا ، ويكون دائماً أولَ مَن يبدأ في سَرْد القصص الغراميّة الشّائقة بأسلوبه الآسِر . كان يدخل علينا سعيداً وكأنه يدخل بيته ، وفي جُعبته الألفُ حكايةٍ وحكاية .

أمّا الزّائر الثّاني فهو « الكوميسير » الذي يتمتّع بخصلتين : المظهر الأنيق وعزيمةُ الفِدائيّ . ولم يكنْ له مَن يُنافسه في حكاياته البُطوليّة الخُرافيّة ومُغامراته الفريدة التي يُضخّمها أربعَ مراتٍ على الأقلّ !

ثمّ يأتي « السيد بابيك » وزوجته ، ويأتي بعدهما « خَنْجَر » .

ويدخل المَقْدِسيّ « هيلفور » ، الذي يقرع الأرض بعصاه على طول الطّريق ، وهو يُداعب سُبحته ، تلك التي فَقَدَتْ لَمَعانَها من طول الٱستعمال .

وكذلك يأتي « ناتان » مُصاحِباً زوجته ، ولكنّه بدأ أخيراً يُفضّل المجيء وحدَه ، لأنّ زوجته باتت تُوبّخه وتُهينه أمام الجميع ، فهو – في رأيها – يعجِز عن مُتابعة رِوايةٍ ما يُريد أن يَرويه من الحكايات ! والواقع أنه كان يأتي ليحتسي القهوة الطّازجة ويُدخّن السّكائر « الثّقيلة » . وأمّا الحكايات فهو لا يُحسن أداءها ، ولا يأتي لروايتها !

أجل ، في ذلك العهد ، كانت تسود المحبّةُ والصّداقة الحميمة ، المقرونةُ بالقناعة والرِّضا .

كنّا نتحلّق حول الموقد حتى مَوْهِنٍ من الليل ، نستمتع بأكل التّين اليابس والزّبيب والجَوْز ، فتُعَزِّز حلاوتُها ما بيننا من أواصر المحبّة ، والثّلج يتساقط في الخارج بكثافة ، فيُغطّي كلَّ شيءٍ ببحرٍ من بياضِ الطُّمأنينة والسّلام . كنّا نشعر بالسّعادة العميقة ونحن نَسْمُر في ضوء المصابيح وعلى أزيز الحطب في النّار ، نستمِع بشَغَفٍ إلى حكايات أفاريان ، الألفِ حكاية وحكاية ، وهو يرويها بأسلوبه الأخّاذ .

لم تكن ليالي السَّمَر تلك لتنقطع أبدا . ويُمكنني القول إنّ بيتنا ، قد تحوّل في تلك الآونة إلى مركزٍ شعبيّ ، أو مسرحٍ قوميّ ، يَفيض مُتعةً ومَسَرّة .

ويمضي أبي في حديثه :

في تلك الليالي ، كنّا نستمتع بآستنشاق رائحة عُشْبة الخَزْمَل العَطِرة ، وفي أيدينا أكوابُ القهوة ، ونحن نُصغي إلى حكاية النجّار يروانت وهو يُناضل ، على رأس جيشه الخياليّ ، لآختطاف الأميرة الجميلة من القصر الذّهبيّ والمُضيّ بها إلى بلاده المُظلمة ...

وقد يَفْغَر ناتان فاه دهشةً . على حين يبدو « خنجر » إلى جانب زوجته ، وكأنّه يتملّى النَّظَر من مشهدٍ غراميّ يُذكّره بشبابه . وكان من عادة بابيك أن يُقاطع الرّاوي بجُملةٍ ينزعج لها المُستمعون ، ولكنّ زوجته ماري ، الجالسةَ إلى جانبه ، تلكُزه في خاصرته لتمنعه من المُقاطعة ، فيمتعض ويلتزم الصّمت ، إلّا من كلمة حمقاء يُنفّس بها عن غيظه الكظيم .

أمّا المقدسيّ هيلفور ، المُتبسِّم دائماً ، فكان مُستنداً إلى جدار الموقد يُداعب سُبحته ، مُردّداً بين الفَينة والأُخرىٰ : الحمد لله .

والكوميسير الأنيق ، الذي يبدو وكأنّه مُتهيّئٌ للذّهاب إلى حفلة عُرس ، لم يكن ليتحاشىٰ مُنافسه أفاريان في رواية طَرَف من حكاياته عن مُغامراته الخياليّة التي ليس لها آخر .

... كذلك كانت تمرّ ليالينا ، تسُودها روح المحبّة والأُخوّة والصّفاء ، فتمسح عنّا قسوة الشّتاء الطّويلة المُملّة ، غيرَ آبهين بما يقع في الخارج ، مُستمتعين بحكاياتنا ، مُحاولين أن نَحُلّ مشاكلنا اليوميّة بأهونِ طريق .

*

ذات ليلة ، ونحن في عالمنا الصّغير هٰذا نستضيء مصباحنا اللطيف ، فوجئنا بباب بيتنا يُقرَع بالأقدام قرعاً شديدا .

يقول أبي : قفزتُ في مكاني وأنا أصيح مذعوراً :

ـــ مَن الطّارق ؟

فجاءني الصّوت :

ـــ آفتحْ ، يا جورج ! أنا جارك أبراهام . هيّا آفتحْ لي بسرعة .

فتحتُ له الباب . ويا لَهَول ما رأيت : آندفع جارُنا أبراهام قمبر إلى الدّاخل على نحوٍ جعل كلَّ مَنْ في الغرفة يقفز مذعوراً . والحكايات توقفتْ ، وآنقطعتْ أوتارُ الطّرب ، قبل أن تتبيّن ما يجري . والسيدة روزا لم تستطعْ إلا أن تصيح مُعترضةً :

ـــ هٰذي ليستْ ليلةَ عيد ! مَن هٰذا الفظّ ، الذي يقتحم على النّاس بيوتهم في مثل هٰذه السّاعة من الليل ، مُعكّراً عليهم صَفْوَهم ؟ !

فيردّ عليها زوجُها :

ـــ آسكتي ، يا آمرأة ! ألا ترين أنّ مَن هو أمامك إنّما هو الرّجل الذي تقع عليه عينُك كلّ يوم ؟ إنّه قمبر ! هيا آسكتي !

فتعود روزا إلى القول :

ـــ ويحك ! ما هٰذا ؟!

وتُردّدُ ماري زوجةُ بابيك :

ـــ آه آه ! ما هٰذا ؟ تبّاً لك ! نحن لسنا في يومِ رأس السّنة أو في عيد الميلاد !

فينبري الكوميسير قائلاً :

ـــ يا هٰذا ! لماذا تحمل الكيس على ظهرك ؟ فليستْ هٰذه ليلةَ الميلاد لتُفاجئنا بهداياك !

وأخيراً حضّهم أفاريان على آلتزام الصّمت ، وهو ينهض غاضباً :

ـــ صمتاً ، يا جماعة ! دعونا نتعرّف الحقيقة . ما فائدة هٰذا الكلام الفارغ ؟ وأنت ، يا قمبر ، أنزلْ حِمْلَك مِن على ظهرك ، وآجلسْ وخُذْ راحتك ، وتناولْ فنجان قهوة ، ثمّ آحكِ لنا بهُدوءٍ عمّا تحمله لنا من مُفاجأة .

أجاب قمبر :

ـــ آصبروا ! وسوف أحكي لكم كلّ شيء !

وأخذ يُقهقه عالياً .

وضع حِمْلَه على الأرض . وراح يفُكّ أطراف عباءته المعقودةَ بإحكام ، وعيوننا شاخصةٌ إليه بفُضول ...

فماذا رأينا ؟

خرج من العباءة جَرْوُ ضَبع ، بَهَرَه ضوءُ المصباح فتوقّف لا يدري ما يفعل . بدا مِثْلَ قطّة قد ضُرِبتْ ضرباً مُبَرِّحاً . ثمّ آنسحب إلى ركنٍ في الغرفة ليجلس مُتَقَوْقِعاً على نفسه ، وقد حلّ به الخوف وآعترته الرّهبة وهو الحيوان المفترس !

آلتفتتْ زوجة بابيك إلى زوجها تقول :

ــ ويلي ! عونَكَ ، يا مسيح !

وآحتَمَتْ روزا العجوز بزوجها ، وقد آنتابها الخوف وهي التي دأبتْ على أنْ تزور جيرانها في ظلام الليل ضاربةً في الأزقّة الضّيّقة .

وأما خنجر ، الذي لا يهاب شيئاً ، المُدّعي أنّ قَتْلَ ضبعٍ عنده أشبهُ بقَتْل بعوضة ، فقد قفز من مكانه ، وصاح :

ــ قمبر ! هل تعتقد أنّك ، بحَمْلِك جَرْوَ ضبعٍ إلى هنا ، تُظهِر شجاعةً ، وأنت تلُفّه بعباءتك ؟ آسمعْ الآن منّي ، إن كان قد فاتكَ أن تسمع : في العام الفائت ، عندما كنتُ مُهاجراً ، أمسكتُ ، وأنا في طريق أسكوران ، بضبعٍ كبير ، وأخذتُ أَجُرّه جَرّاً حتى وصلتُ به إلى باحة بيتنا . كان في حجم حمار ، ولكني جَرَرْتُه مثلَ كلب . وبعد أن أوسعتُه ضرباً ، لوحشيّته ، أَجْهَزْتُ عليه بخنجري الحادّ .

فقال أبي :

ـــ بحسْبك ، يا « خنجر » ! نحن لم نسمعْ منك هٰذه القصّة قبل اليوم ، فمن أين آخترعتَها الآن ؟ !

فقال الكوميسير :

ـــ لو أنك ممّن يُصَدِّقون القصص ، يا جورج ، لكان الخبر وصل إليك ! من ناحيتي سمعتُ هٰذه القصّة ، ولكني لم أُصدِّقها . يبدو أنّ العمّ خنجر تخيّل أن جَرْجَرَته لآبن أخيه العنيد هي جرجرةٌ لضبعٍ كبير !

أجاب خنجر ، مَطعوناً في كبريائه :

ـــ أنتَ أنت ، لا يحقّ لك الكلام ، يا كوميسير . أنت لم تَذْبَحْ حَمَلاً وديعاً في حياتك كلِّها !

فآنتهرهم بابيك :

ـــ كفىٰ كفىٰ ، يا جماعة ! بدلاً من أن تُهَنِّئوا جارنا أبراهام الجَسُور على شجاعته ، وتُباركوا صَنيعه ، رُحتم تتباهَوْن ببُطولاتكم الخياليّة وتمتدحون أنفسكم ، وتتناقرون ! ثُوبُوا إلى رُشدكم ، وفكّروا بالواقع : ماذا يعني جَلْبُ ضبعٍ حيّاً إلى هنا ؟!

وهٰهنا قال أبي :

ـــ آجلسْ ، يا جار ، آجلسْ . إننّا نراك ، منذ السّاعة ، شُجاعاً وفريداً في شجاعتك لما أنجزتَهُ الليلةَ من بُطولة . آسترحْ ، وآهدأْ ، وآشربِ القهوة ، ثمّ حدِّثنا كيف آستطعتَ أن تقتنص هٰذا الوحش ، الذي أفزعتَنا به لدى دُخولك ، ثمّ سَرَرْتَنا بعد ذٰلك سُروراً كبيرا ؟

ويأخذ قمبر ، الشّجاع ، في رواية قصّته مع الضّبع ، وهو يحتسي القهوة رَشْفة بعد رَشفة ... قال :

ــ الحقيقة أنّي أردتُ ، يا أخ جورج ، أن أقضي السّهرة بينكم . ولكنّ زوجتي لم تُوافقني ، قالت : « يا رجل ! وهل يخرج أحدٌ من بيته إلى بيوت الآخرين ، في مثل هٰذه الليلة الباردة ؟ ! دَعْكَ في بيتك ولا تُبارحْه ! » . ولكني ــ أعترفُ لكم ــ لا أستطيع أن ألبث في البيت . قلت لها : « ولماذا تقولين « بيوت الآخرين » ، يا آمرأة ؟ كلّنا جيران ، أخوة وأخوات . المرء بالمرء يحيا ، وبالتّقارب تزدهر المحبّة » . ولكنّ زوجتي لم تقتنعْ ، وأخذتْ ترشُقني بالكلمات الجارحة . وخشيةَ أن يتطوّر الأمر ، ويدخل الشّيطانُ الأسود بيننا ، نهضتُ ، وألقيتُ عباءتي على كتفي ، وفتحتُ الباب ، وآندفعتُ إلى الطّريق . ولم أكدْ أبتعد عن البيت عشرين خطوة ، حتى أحسستُ برغبتي في قضاء حاجة . ولم أشأْ أن أعود إلى البيت ، فآلتجأتُ إلى جدار المقبرة . فَعَلْتُ ، وقُمتُ ، ولكنّ شيئاً ما دفعني في ظهري ، ثمّ آستقرّ فوقي . عرفت أنه حيوانٌ مفترس ... فتلبّثتُ في موضعي ولم آتِ بحركة !

يقول أبي :

فآنشدّتْ أبصارنا ، نحن الذين نُصغي ، إلى الضّبع الذي يرمز عندنا إلى الوحشيّة والغدر ، وقد آنبهرتْ أنفاسنا ، وآنتظرنا أن يُتابع أبراهام روايته ...

قال ، بعد أن آرتشف ثُمالة فنجان :

ــ الثّلج ، يا جيران ، ينذُف خفيفاً ، وأنا في مكانٍ يُخيم عليه صمتُ القُبور ، فأَسمعُ صوتَ أنفاس الوحش وصرير أنيابه ! قلت في

نفسي : ليتك آستمعت إلى نصيحة زوجتك ، يا أبراهام ، فوَقَيْتَ نفسك الوقوعَ في هٰذا المأزق القاتل ! ولكن كان قد فات أوان النَّدَم ، فالضّبع شَرع في آفتراسي ، مُبتدئاً برقبتي ، التي تلُفّها العباءة . فكرتُ : أنا ، الآن ، معرَّضٌ للموت آفتراساً ! ولا خلاصَ لي إلا بِمُعجزة . وآنبثقتْ هنا في رأسي فكرة : آستجمعتُ قوّتي كلَّها ، وفي مثل لَمْحِ البصر ألقيتُ بعباءتي على الوحش ... فإذا هو يَجد نفسه في فخّ ! فأخذ يُقاوم بشراسة ، مُحاولاً الإفلات ، وكاد يُحطِّم ظهري لو لا عنايةُ الله وبركة حليب البقرات المُقدَّسات الذي غَذّى عظامي ، فآحتملتُ وصابرت ، وخرجتُ من المعركة مُنتصراً ، بفضل هٰذه العباءة المنسوجة من شعر الماعز ، المباركة ، التي صمدتْ لمقاومة الضّبع فلم تتمزّقْ ... وأُحْبَبْتُ ، بعد نجاتي من الموت ، أن تُشاركوني فرحةَ آنتصاري ، وأن أُقدِّم لكم هٰذه المُداعبة التي قد تكون ثقيلةً ، ولكني ما أشكُّ في أنها مُبهجة أيضاً !

هتف أبي وقد أخذتْه الحماسة ، مُنتشياً :

ـــ حُيِّيتَ ، يا جارنا أبراهام ، أيّها الجار الشّجاع ! إنّ ما فعلتَه الليلة يحمِلني على أن أسترجع ، بإشفاقٍ ، ذكرى ماضية . فلو أنّ كلَّ فردٍ من أبناء أُمّتنا حَذا حَذْوَك ، لكُنّا آستطعنا أن نُحْكِم قبضتنا على أعدائنا من الضّباع البشريّة ، تلك التي حاولتْ إبادةَ شعبٍ مُسالِمٍ بكامله ، ونجحتْ في القضاء على عدد كبير منه .

قال بابيك بلهجةٍ مُؤثِّرة :

ـــ أحسنتَ التّعبير ، يا جورج . هدفُك سامٍ ولا شكّ . ومَن يدري ، فلعلّ الكلام والعمل بالأمثال ، يكونان آستمراراً للنّضال ... أليس كذلك ؟

قال أبي :

ـــ لا ، يا بابيك ! إذا كنّا لم نتعلّم على مرّ السّنين بالمشاعر ، فإنّنا لم نتوقّفْ عن النّظر .

وكان الضّبع خلال ذلك كلّه ، يقبَع في زاويته كالقطّة المذعورة .

قالت روزا :

ـــ أوْقِدِ النّار ، يا جورج ، ودَعْها لاهبة . فإنّ الضّبع أخٌ للعَتمة . فإنْ حدث أنّ الغرفة أظلمتْ ، لا سمح الله ، آستفاق الضّبع ، وآستوحش ، وآنقضّ علينا !

كانت تنطِق بكلماتها ، بهدوءٍ وفصاحةٍ معاً ، كلمةً كلمة .

فيقول خنجر ، هوسيب بولاديان :

ـــ لا تجْزَعي ، يا سيدتي ! إنّ قتل ضبعٍ لا يستغرق سوى دقيقة .

فينبري الكوميسير كريكور ساغجيان قائلاً :

ـــ كُفّوا عن هٰذا اللغو ، وآستمعوا إليّ أقصّ عليكم قصّةً تُبَدِّد قلقكم .

فقال أبي :

ـــ دعْ قصّتك إلى يوم غد ، يا عزيزي . فنحن لم ننتهِ بعد من محاكمة الضّبع .

وتدخّل أفاريان :

ــــ فلْنَنْتَهِ منه قبل آنقضاء الدّقيقة ، يا جورج ! (ونهض واقفاً) لقد تعكَّرتْ رائحةُ بيتك ! وإنّي أُحسّ بالغَثَيان .

قالت ماري بصوتٍ يرتعش :

ــــ نعم نعم . صارت رائحة الغرفة نَتِنةً لا تُحتَمل . أُخرجوا هٰذا اللعينَ من هنا ، وآقتلوه !

وشرع خنجر في لفّ سيكارةٍ غليظة ، وهو يجترّ ذكرياته السّعيدة .

ويُوصي أبي أمّي على أربعة فناجين قهوة من جديد . ويومئ برأسه إلى أبراهام ، فيقفز هٰذا كفدائيٍّ مُقْدِمٍ على عمل ، مُقترباً من الضّبع . ولكنّه قبل أن يبدأ يقول قولةَ الواثق :

ــــ يقولون إنّ الضّبع يتأثّر بالنّور فيَغْشىٰ بصرُه ويُصبح أطوعَ من حَمَل . وما كنتُ أُصدّق . أمّا الآن ، وبعد أن آقتنصتُه بمحض المُصادفة ، عرفتُ الحقيقة .

فيقول أبي وهو يتبسّم :

ــــ نعم ، يا جاري ! إنّها صِفَةٌ يتّصف بها المُذنبون . إنّهم يخافون إذا ما أُلقيت عليهم الأضواء ، لأنهم يُفْتَضَحون أمام الحقيقة .

مطعم المغتربين

بعد أن ساح «آغوب ولاديان» – الذي يُجيد سبعَ لغات – في أنحاء العالم، وزار أكثرَ عواصم الدّنيا حضارةً، آستقرّ رأيُه على العودة إلى بلده كَسَب. وأراد أن يستفيد من مهارته في الطّبْخ، فيفتتح مطعماً يُؤمّن به مُتطلباتِ حياته.

وحقّق مشروعه في يومٍ من أيّام العام ١٩٥٠. آستأجر كشْكاً من خشب بجوار مقهىٰ ميناس القهواتي، وجهّزه بالطّاولات والكراسي، وآختار له آسماً: «مطعم المُغتربين»، خطّه على لافتةٍ علّقها فوق المطعم.

ثمّ إنّ الخبر آنتشر في كَسَب، حتى وصل إلى القُرىٰ المُجاورة، القريبِ منها والبعيد.

المطعم يحمل آسم **مطعم المغتربين**!..

ولكن مَن هم المُغتربون؟ وأين هم؟ فإنْ سلّمْنا بوجودهم في

جهات الدّنيا الأربع ، فأين نلْقاهم في كَسَب ؟ ولو كانوا جاؤوا إليها ، فماذا يفعلون فيها ، في الوقت الذي ينزح شبّانُ كَسَب إلى المُدُن ، طَلَباً للرّزق ، ويذهبون إلى بلاد الأغتراب حيثما كانت ؟!

وتوجّه أبي إلى آغوب ولاديان ، ليُبارك له في مطعمه الجديد ، ويتمنّىٰ له النّجاح . وفي الحقيقة ، لم يَرُقْ لأبي هٰذا الآسم ، الذي أطلقه صديقه على مطعمه ، ورأىٰ أنه بعيدُ عن الذوق ، فقال يُحاوره :

ــ آغوب ! ما الذي حَمَلَك على آبتكار كلمة « المغتربين » ، المُحزِن هٰذه ، آسماً لمطعمك ؟ أعتقد أنْ ليس هناك إنسانٌ في كَسَب ، أو في القُرىٰ المُجاورة ، يعتبر نفسه مُغترباً ، حتى يجذِبه الآسمُ فيأتي إليك يَسُدّ جَوْعَته في مطعمك ! وما دام ليس في كَسَب مَن يأتي إليها من الخارج مُغترباً ، لا وليس فيها خارجٌ من الدّاخل ، فإني أقترح عليك أن تستبدل بهٰذا الآسم غيرَه . والله يُوفّقك ويُيسّر عملك .

فآنتفض ولاديان مُنزعجاً :

ــ ماذا تقول ، يا معلّم ؟! قادمون وخارجون ! أَلسنا كلُّنا مُغتربين في هٰذه الدّنيا ؟ لا يدخل أحدٌ من الخارج ، ولا يخرج أحدٌ من الدّاخل ، لأننا جميعاً ، غنيّاً وفقيراً ، شيخاً وشابّاً ، مُغتربون بلا آستثناء في هٰذه الدّنيا .

فيقول أبي :

ــ لك ما تُريد ، يا آغوب ! أتمنّىٰ لك النّجاح من كلّ قلبي . ولكني لا أدري لماذا أحسّ أنّ كلمة « مغتربين » هٰذه تنطوي على رَنّة

حُزن . أقترح عليك لو تُغيّر الاسم وتجعله « النَّذْر الجديد » بدلاً من المغتربين !

فيُجيب ولاديان :

ـــ لِيَبْقَ الاسمُ على حاله مدّةً ، يا معلّم . فإنْ لم أُلاقِ النّجاح آستبْدَلْتُ به آسم النَّذْر الجديد ، وعلى الله الاتّكال .

فأكّد أبي :

ـــ إنّ للآسم تأثيراً كبيراً . فإنّي رأيتُ فندقي يدُبّ فيه النّشاط ، من يوم أن غَيّرتُ آسمه من لوكس إلى أميرة .

قال أبي ذلك مُبتسماً ، وتركه ومضى إلى النّادي .

الطباخ ديمتري

١

ذات صباح من صيف العام ١٩٦٠ ، آستخدم أبي طبّاخاً يونانيّ الجنسيّة ، يُدعىٰ « ديمتري » ، ليعمل في مطعم الفندق .

وأحبّ أبي أن يختبر هٰذا الطبّاخ ، فأسرع إلى السّوق ، وآشترىٰ له كلّ ما يلزم من الخُضار واللحوم ، وصَحِبه إلى المطبخ ، وقال :

ــ هيّا أَرِنا مهارتك في الطّبخ اليوناني !

فأجاب ديمتري : أنا عند حُسن ظنّك ، يا معلّمي !

وشرع في العمل .

ثمّ إنه حانت ساعة الغداء ، وتجاوزتْها عقاربُ السّاعة ... فأسرع أبي إلى المطبخ ، فلم يجد طعاماً ، لا وليس ثمّة رائحةُ لحمٍ يُطبَخ !

صاح أبي مُغتاظاً : أين الطّعام ، يا ديمتري ؟!

فتساءل الطّباخ ببرود :

ــ أيّ طعامٍ تعني ؟ نحن لا نطعم إلا في المساء !!

سانا كريم بغداصاريان

في عهد الوحدة بين سوريّة ومصر ، وعلى وجه التّحديد في العام ١٩٦٠ ، أخذ بعض الأرمن المصريّين ينزلون في فندقنا .

وكان منهم أسرةٌ عرَّف صاحبُها بنفسه إلى أبي ، قال :

ـ آسمي « سانا كريم » ، وكُنْيتي « بغداصاريان » . أرمنيّ من مصر . أُجيد كثيراً من المهن والفنون : قضيتُ مدّةً في الحلاقة النّسائية ، لكني وجدت أنّ التّعامل مع رؤوس النّساء مُتعباً ، فتركتُ هٰذه المهنة . عملتُ في التّصوير الضّوئي ، ولكني لم أحتمل نظرات الحقد التي تُوَجَّه إليّ وأنا بين الجمهور المُختلط من الرّجال والنّساء ، فتركتُ هٰذه المهنة أيضاً . عملت موظفاً في إحدى الشّركات ، هنا أيضاً أحسستُ أنّ صبري كاد يَنْفَد ، فقرّرتُ الآستغناء عن هٰذا العمل . خُضْتُ بحر الخِياطة النّسائيّة ... ولله الحمد أحببتُ هٰذه المهنة ، أخيراً ، وما زلتُ أمارسها .

فقال له أبي مُمازحاً :

ــ حسناً فعلتَ ، يا ديمتري ، إذ تركتَ الرُّؤوس والوُجُوه ، ونزلتَ إلى ما تحتها حتى وصلتَ إلى ... الرُّكَب !

والطّريف في أمره أنّه تعرّف ، بفضْل هٰذه المهنة ، على المرأة التي غَدَتْ رفيقة حياته ، وقادتْه نحو شاطئ الأمان ، تشُدّ أزره وتُشجّعه على المُضيّ قُدُماً في مهنته .

وها هما ، الزّوجان ، اليومَ ، هنا .

عندما كان أبي نجاراً

عندما كان أبي يعمل في مهنة النِّجارة ، تعهد عملاً خفيفاً في مكانٍ قريب من قلعة كَسَب .

وذات صباح ، حمل عُدَّته ومضىٰ لمُباشرة عمله . وما كاد يصِل إلى مشارف بيت « مازموني » حتى سمع صرخاتِ آستغاثة ، فآستحثَّ خُطاه حتى وصل إلى حيث الصَّوت ، فرأىٰ « آستيبان أفاريان » (مازموني) وهو يتدحرج من أعلى التلّ مُنحدِراً إلى الوادي تُرافقه خيوطٌ قد صنعها من شعر الماعز !

فخفّ أبي إلى نجدته .

في هٰذه اللحظة ، وعند المُرتقىٰ ، لاحتْ لأبي شابَّةٌ جميلةُ الطَّلعة ، يعرفها ، تُدعىٰ « مارتا » ، من أُسرة « عبدوليان » التي تُصاهِر أفاريان . وتراءىٰ لها أن تعرض على أبي كيف يُمكن إنقاذ المُصاب ، وأنْ تشرح له ، كذلك ، الأسباب التي أدّت إلى وُقوع هٰذا الحادث !

فقاطعها أبي وهو يستعدّ لأنتشال الرّجل ، الذي كان يئنّ مثل حشرةٍ وقعتْ في شِباك عنكبوت :

ـــ ليس هٰذا وقت عرض الآراء ، يا سيّدتي ! دعي ذلك إلى ما بعدَ إنقاذه .

والمُصاب يُتابع آستغاثته :

ـــ النّجدة ! آلحقُوني ! آنقَصَم ظهري .

كانت زوجة مازموني في الإصطبل مشغولةً بتقديم الطّعام إلى الماعز . فلما ترامتْ إليها الآستغاثة ، آندفعتْ إلى الخارج . وما إن رأت زوجها على هٰذه الحال حتى أخذت تشدّ شعرها وتُوَلْوِل .

فنهرها أبي :

ـــ آهدئي ، يا آمرأة ! لا داعي لهذا الجُنون ! زوجك سليمٌ معافًى . آنظري إليه . كلّ ما هنالك أنّه يتألّم ، كما يبدو ، من وجع في ظهره بسبب هٰذه السّقطة ! لا حاجة إلى هٰذا الآضطّراب . آهدئي !

وبدلاً من أن تهدأ المرأة أخذت تضرب بيديها على رُكبتيها ، وتنوح :

ـــ واهاً لك ، يا زوجي الطّيّب الوفيّ المُطيع ! أكان مكتوباً عليّ أن أنتظر هٰذا اليوم فأراك على هٰذه الحال ؟! ويلي ، يا ملاكي العزيز !

فآنبرت مارتا تُوَجّه الخطاب إلى زوجة آستيبان :

ـــ تقولين عنه « ملاك » بدلاً من أن تقولي « شيطان » ؟ إنه يستحقّ ما وقع له ! لقد نال جزاءه !

فتدخّل أبي :

— ماذا تقولين ، يا مارتا ؟ ما الدّاعي إلى هٰذا القول ؟ آنظري إلى الرّجل وهو يتلوّىٰ من الألم . أخشىٰ أن يكون قد كُسِر عضوٌ فيه !

قالت كَنّة عبدوليان :

— فلْيَنْكَسِرْ ، لعلّه يتربّىٰ ! يُريد ، الخبيث ، أن يأكلني بعينيه بنظراتٍ فاجرة ، ويُرقّص لي شاربيه !

قال أبي :

— حسنٌ ، يا آمرأة . لنؤجّل النّظر في المسألة إلى ما بعد . آهدئي الآن .

وتابع إسعاف الرّجل ، بأنْ سَجّاه على مقعدٍ خشبيّ تحت الشُّرفة . وبعد أن آطمأنّ عليه ، آلتفت إلى مارتا قائلاً :

— الآن ، يُمكنك أن تقولي ما تُريدين ، يا سيّدتي !

على حين كانت زوجة مازموني ، تُعوِل ، رافعةً يديها إلى السّماء ، تلتمس من الله العون .

وتشجّعتْ مارتا ، فآسترسلتْ تقول :

— نعم ، نعم ، سأحكي ، وليعلم الجميع ، ولْتَعْمَ عيونُ الرّجال النّهمين ! كنت قبل قليلٍ أسير في مُنحدر القلعة ، ورأيت هٰذا الرّجل (وأشارت إلى آستيبان المُسجّىٰ على المقعد الخشبيّ) ، مُرتقياً المقعد ، يقوم بعملٍ ما ، مُرتّحاً تحت شجرة التّوت ، يشدّ خيوطاً ينسجها بطول

عشرة أمتار إلى الأمام وعشرة إلى الوراء ، يروح ويجيء ، يُعلّقها وفق رغبته . فلما لمحني ، سدّد إليّ نظراتٍ من عينيه الضّيّقتين حتى لم تعودا تطرفان ! قلت في نفسي : تُرىٰ ، ألم يرَ رجالُ هٰذا الحيّ آمرأةً من قبل ؟! وتابعتُ سيري وكأنّ الأمر لا يَعنيني . فلما آقتربتُ ، من آستيبانكم هٰذا ، بدأ يفتل شاربيه الرّفيعين ، ويبتسم ، ويغمز بعينيه ، وصفّر صفرة إعجاب وإغواء ، مُنشغلاً عما بين يديه من كرات الخيطان التي تَنُوس ، وعن الهُوّة المُتربِّصة به من خلفه . أردتُ أن أُنبِّه هٰذا الرّذيل بما يستحقّ من كلمات ، فإذا به ، وهو يُعاكسني مُتقدماً ومُتراجعاً ، تَزَلّ قدمُه ، ويتدحرج في الهُوّة بكلّ جسمه . فصرختُ ، وآستغفرتُ ربي ، وهممتُ بأن أبتعد عن المكان ... لولا أن رأيتُك أمامي وكأنك تسدّ عليّ الطّريق . إنّ من واجبي أن أُعلن الحقيقة وأُبيّن سبب سُقوطه !!

هٰهنا توجّه أبي إلى مازمولي ، المُصاب ، يسأله :

ــ بعد أن كُتِبتْ لك النّجاة ، بماذا تُدافع عن نفسك ، يا آستيبان ؟

فأجاب :

ــ آرحموني ، حُبّاً بالله . أنا ما نظرتُ إليها نظرة غشّ . فلْتَعْمَ عين مَن ينظر إليها بغشّ ، وليخربْ بيته !

قال ذلك ، وهو يُحاول الجُلوس ، فمنعه من ذلك ظهره المرضوض .

فردّ أبي مُقرّعاً :

ـ أوَليس هٰذا خرابَ بيتك ، يا رجل ؟ أم ماذا تُسميّه ؟!

رفع آستيبان صوته ، مُتظاهراً بأنّه لم يفهم ما عناه أبي :

ـ إن لم يَخْتَبِرْنا الله نحن البشر ، هل يختبر الحجر ؟!

وأما زوجته ، فكانت تُتابع نُوَاحَها :

ـ ويلي ، يا ملاكي !

أراكم في السماء

حدَّثنا أبي أنّه كان يعيش في لبنان رجلٌ من كَسَب ، يُراسِل خَطِّيّاً ويُخاطب هاتفيّاً أخاً له يُقيم في كَنَدا منذ زمنٍ بعيد .

ذات يوم ، سأل الأخُ المُقيم في كندا أخاه المُقيمَ في لبنان ، قال :

ــ هاغوب ! ماذا لو بعثتَ أُمّي إلينا لننعم برؤيتها ؟ فقد مضىٰ زمنٌ طويل دون أن نراها ، ونحن في شوقٍ إليها !

أجاب هاغوب من لبنان :

ــ حسناً تقول ، يا سركيس . سأبعثها إليك في أقرب فرصة . إنّها ، كذلك ، لا تنقطع ، ليلَ نهار ، عن تِرداد آسمك قائلةً : « آبني سركيس ! » ، وتذوب شوقاً ، وتلتوي .

ومن سوء الحظّ أنّ الأمّ ماتت بعد شهرٍ واحد من تلك المُكالمة الهاتفيّة . وكان لا بدّ من أن يُبلِغ هاغوب أخاه في كندا بذلك ، فآتّصل به هاتفيّاً ، وقال :

ـــ أخي سركيس ! لقد بعثنا أمّك ...

وفجأةً حصل تشويشٌ في الهاتف ، جعل كلمات هاغوب تضيع في الهواء !

على أنّ عبارة « بعثنا أمك » أشرقتْ بأبدع الأنوار في نفس سركيس المُشتاق إلى أُمّه ... فتوجّه من فوره إلى المطار لآستقبالها .

لكنّه بعد يومين من الذّهاب إلى المطار ، والآستفسار عن وُصول أُمّه ، عاد إلى بيته خائباً يائساً ، وهو يُكابد الأشواق لرؤية أُمّه .

ثمّ إنّ سركيس تلقّىٰ ، ذات صباح ، برقيّةً تتضمّن هٰذه الجُمَل المُقْتضبة :

« أخي العزيز . أُعلمك ، ببالغ الأسىٰ ، أنّنا بعثنا أمّك إلى مدينة القدس النّيّرة ، وكانت آخر كلماتها : أراكم هناك في السّماء » .

أبي في روما

في العام ١٩٥٥ ، اضطُرَّ أبي إلى أن يُسافر إلى أمريكا الجنوبيّة لتشييع أخيه المُقيم هنالك مُهاجراً والذي تَوَفّاه الله على فجأة .

وبعد أن عانى مرارة الحزن على أخيه ، وشرب – على مدى عام – كأس الغُربة حتى الثُّمالة ، قرّر العودة إلى أهله ومسقط رأسه .

وكانت رحلة العودة ، في شركة « ك . ل . م » ، تستوجب أن يقضي أربعاً وعشرين ساعةً في روما .

*

نزل في روما مع العشرات من أمثاله ، وتوجّهوا إلى فندق حُجِزتْ لهم فيه الغُرف للمَبيت فيه ليلتَهم ، على أن يقضُوا نهار اليوم التّالي في التّجوُّل في المدينة والتّعرُّف على آثارها وتماثيلها ومنشآتها الهندسيّة والمعماريّة .

وكان يتوجّب على أبي ، بناءً على تعليمات شركة الطّيران ، أن يُؤشّر

على جواز سفره من السّفارة السّوريّة في العاصمة روما ، وإلّا فاتته الرّحلة واضطُرَّ إلى أن ينتظر الرّحلة التّالية بعد أسبوع كامل يتحمل خلاله نفقات الإقامة ! ولما كانت هٰذه النّفقات باهظةً فقد عزم على أن تكون أولُ مهامّه في هٰذا اليوم أن يحصُل على التّأشيرة من السّفارة السّوريّة .

ولمّا كان أبي لا يعرف — بعدَ لغته الأمّ — غيرَ التُّركيّة ، وقليلٍ من العربيّة ، ولا يملك وسيلةً للتّفاهم سوى الإشارات ، فقد حمل توّاً جواز سفره بيده ، ورفعه عالياً ، واستوقف سيارة أجرةٍ لتُقِلَّه إلى حيث يُريد . وتمكّن أن يقول للسائق :

— قنصولات سوري !

فأومأ السّائق برأسه علامة الفهم ، ودعا أبي إلى الصُّعود .

وبعد أن آستقرّ بجانب السّائق ، أعاد عليه عبارة « قنصولات سوري » . فآنطلق هٰذا بسيارته ينهب الأرض نهباً ، وأبي إلى جواره مثل تلميذٍ مطيع .

بعد ساعةٍ من ذلك ، بدأ القلق يُساور أبي ، خصوصاً بعد أن رأى أنّه أصبح في مكانٍ خَلَوِيّ . فراح يحتجّ ، بالإشارة وبإصداره بعض الأصوات . وكأنّ السائق أدرك قصده فراح يُهدِّئ من رُوعه ، بالإشارة أيضاً ، أن آصبرْ ، سوف نصل ! ولكن كيف يهدأ وهو الذي طالما سمع عن مهارة الإيطاليّين في آستعمال السّكين ؟! وأخذ يبحث في جيبه عن سكين ، ولو صغيرة ، يُدافع بها عن نفسه عند الضّرورة !

أخيراً ، توقّفت السّيّارة أمام قصر ، على بابه رجلٌ يعتمر قبّعةً تكاد تُغطّي عينيه .

غادر أبي السّيّارة ، وهو يلعن ويشتم . وآزدادت غضبتُه عندما مدّ له السّائق يداً بفاتورة الحساب ، التي بلغت خمسين دولاراً ، دفعها صاغراً لأنّه أجنبي !

أنجز أبي مَهمّته في السّفارة ، وخرج منها ظافراً . وعلى بابها أشار بيده ، لأول شخصٍ صادفه ، ببطاقة الفندق الذي ينزل فيه . قرأها الرّجل وآبتسم ، ورافقه ، سيراً على الأقدام ، إلى الفندق الذي كان يقع في الشّارع المُجاور !

وبذلك يكون أبي قد دفع خمسين دولاراً في خمسين متراً . وكانت السّاعتان اللتان قضاهما من أقسىٰ الذّكريات عنده !

*

تقلّب ابي في سريره طويلاً ، وهو يحلَم بشُروق شمس اليوم التّالي ، آملاً أن يلتقي أرمنيّاً يتحدّث إليه بلُغته الأمّ ويبثّه همّه لما لَقِيَهُ في يومه السّابق ، وعمّا شاهده في أمريكا الجنوبيّة ، إلى غير ذلك ممّا يُنفّث به عن صدره ، بعدما أحسّ وكأنّ لسانه قد شُلّ لعدم قدرته على النُّطق بكلمة .

وفي الصّباح تناول فَطوره ، وألقىٰ بنفسه إلى الشّارع .

وبعد تِجوالٍ طويل ، هنا وهناك ، وحيداً فريداً بلا مَعارف ولا أصحاب ، حتى الظّهيرة ، دخل مطعماً ليستريح فيه من عناء المشي ، ويتناول شيئاً من طعامٍ يسدّ به رمقه ، وقليلاً من الشّراب يُطفئ به عطشه .

آتّخذ مجلسه في المطعم ، وهو ما زال يتوقّع حُدوث المُعجزة بأن يُصادف أرمنيّاً يتحدّث إليه بلغته الأمّ .

ووقعت المُعجزة !

إذ بينا هو جالسٌ ، رنّتْ في أذنه كلماتٌ أرمنيّة ، تسلَّلتْ إلى أعماق روحه . فتلفَّتَ حواليه ، كمن آستيقظ من حُلُمٍ عميق ، يبحث عن مصدر الصّوت .

ورنَّت الكلمات الأرمنيّة مرّةً أُخرىٰ ، تقول :

ـــ لماذا يا سيرانوش ؟! ألم يُعجبْكِ ؟

ولم يُطِقْ أبي صبراً ، فنهض من فوره وتوجّه نحو الرَّجل والمرأة اللذين يتكلّمان الأرمنيّة . فبادرهما بالسّلام ، وجلس إلى مائدتهما دونما دعوةٍ أو آستئذان ، فأصبح ثالثهما .

وآستقبله أرْمَنِيّا روما بترحاب ، لبساطته . وقدّما إليه نفسيهما : السّيّدة سيرانوش ، والسّيّد يَغْيا .

وآنحلَّتْ ، بهٰذا التّعارف السّعيد ، عُقدةُ لسان أبي ، وأخذ يحكي بطلاقةٍ عن كَسَب وجبالها الخضراء ، ويعود إلى الحديث عن أمريكا الجنوبيّة ، ثمّ ينتقل إلى رواية ما جرىٰ له في روما يوم أمسِ ... فأضحك بذلك الزّوجَيْن إلى درجة القهقهة . وعَذُب الحديثُ بينهم وطاب مأخذاً ، وكأنّهم مُتعارفون منذ زمنٍ بعيد .

وأخذت كؤوس النّبيذ ترتفع ، وتَرِنُّ بالأنخاب ، وتنزل فارغةً ، لتُنعِش الأرواح الصّدِئة .

وسَعِد أبي بهٰذا اللقاء ، وآنتهزها فرصةً ليسال السّيّد يَغْيا عن عادات أهل روما ، وأسلوب معيشتهم ، وحياتهم اليوميّة .

فقال يَغْيا :

ـــ ذكَّرْتني ، يا سيّد جورج ، بما تبحث عنه ، بشعرٍ يتغنّىٰ به الرّومانيّون منذ قديم الزّمن ، هو مَثَلٌ سائرٌ جاء في قالبٍ شِعريّ ، يقول :

آستند وليدي بجسده النّديّ
إلى الجدار
فإذا سارع إلى السُّقوط ، بالخوف والبكاء
فويلاه ! يَكْبَر سارقاً شريراً ...
وطفلي الوليد ، بجسده النّديّ
إذا آستند إلى الجدار ، طُرْفةَ عين ،
غدا نحّاتاً ماهراً ،
أو يبعث مسيحاً من جديد .

هتف أبي :

ـــ عظيم ، سيّد يَغْيا ! هٰذا ما أبحث عنه فعلاً . وما أحسنَ ما رويتَ ! الآن أُدرك أنّ سائق الأمس ينتمي إلى الرُّباعيّة الأولىٰ !

ثم جرع نصف كأسه ، وقال :

ـــ لكن ، يا سيّد يَغْيا ، هل يعمل أرمنُ روما بهٰذا المَثَل فيما بينهم ؟!

قال أرمنيُّ روما مُستنكراً :

ـــ ماذا تقول ، يا أخ جورج ؟! لا حاجة بالأرمن إلى مثل هٰذا المَثَل ، لأنهم ، منذ الولادة ، مُهندسون وصناعيّون .

فآبتسم أبي فَخُوراً بقومه المُهندسين الصُّناعيّين الأمجاد ، ورفع كأسه يشرب نخب قومه ووطنه .

بعد ذلك آعتذر السّيّد والسّيّدة بحجّة غسل أيديهما ، وغابا وراء الجدران .

وآنتظر أبي عودتهما ... وطال آنتظاره ...

ثم جاءه السّاقي يطلب الحساب .

وبجهل أبي باللغة فقد دفع الفاتورة ، مئة دولار ، صاغراً ، دون أن يعرف أين ذهب أرمنيّا روما ، المُهندسان الصُّناعيّان منذ الولادة !

سائق باص قريتنا

آعتزل « كارنيك » ، سائق باص قريتنا ، قيادة الباص وسلّمه إلى « هرانت » ، ولزم البيت بلا عمل ... فجعل يقضي اليوم في الشّرفة ، يشرب العَرَق ويُدخن النّركيلة ، ولا يكفّ عن الشّجار مع زوجته مُكيلاً لها الشّتائم من الصّباح حتى المساء ... حتى ملّ هٰذه الحياة الرّتيبة ، التي لا تُدُرّ ربحاً لكنها تَضُرّ بصحّته وماله ، لذلك آعتزم البحث عن عمل آخر ، يَشْغَل به وقته ويكسب المال .

وكان السّائق كارنيك قد أخذ عن أبيه وأخيه المعرفة بقلع الأسنان ، وكان ماهراً فيها فعلاً . فتراءىٰ له أن يُمارس هٰذه المهنة ، وآختمرت الفكرة في رأسه ، وتجنّحت ، وحلّقت في أجواء خياله حتى صحّ عزمه على تنفيذها .

وما كاد يُمارس هٰذه المهنة حتى ذاع صيته في البلدة وآمتدّ إلى القرىٰ المجاورة . ومن طريف أمره أنّ مهارته في خلع الأضراس لم تكن تتبدّىٰ إلا بعد أن يكرع عدة أقداح من العرق ، مصحوبةً بلُقَيْماتٍ من السّمك ،

وعندئذٍ يخلع السّنّ أو الضّرس بشدّةٍ واحدة لا تدع للمريض مجالاً لأن يُحسّ بالألم !

*

ذات يوم جاءه قَرَويٌّ طاعنٌ في السّنّ ، يشكو له وجعاً في سنٍّ وطلب خلعه . وبدا أنّ كارنيك كان قد زاد في الشرب في ذلك اليوم عن حدّه المألوف ... ودون قصد منه خلع سناً سليماً من أسنان الرجل قبل أن يخلع له السّنّ المنخور !

لم ينتبه المريض إلى ذلك . بل شكره كلَّ الشّكر على خفّة يده التي جعلتْه لا يحس بالألم ، وودّعه وآنصرف .

ولكنه نظر ، بعد أن زايله الألم ، في المرآة إلى أعماق فمه ، فرأى فجوةً في مكان السّنّ السّليم ، فآستبدّ به الغضب ، وسارع إلى طبيب الأسنان — سائق السّيارة السّابق — كارنيك ، مُهدِّداً مُتَوَعِّداً . ولم يُغضِب وعيدُه كارنيك ، الذي تلقّاه بهدوء ، وجعل يشرح له الأمر قائلاً .

— يا صديقي ! وجود سنّ سليم في فمك ، وأنت في هٰذا العمر ، يضرّ بمعدتك ، وقد يؤدي بك إلى الموت . لذلك يَحْسُن بك أن تتجنّب أكل اللحم والمأكولات القاسية ، فتعيش عمراً مديداً بإذن الله !

أُفحِم الرّجل ، ولم يجد قولاً يتعلّل به في المجادلة ، التي أيقن أنه لن يخرج منها منتصراً لا سيا مع رجل مثل كارنيك ، السّائق السّابق وطبيب الأسنان الحالي . فتركه ، ومضى مُطأطئ الرّأس ، يلعنه في سرِّه ألف لعنة .

في حديثنا عن طبيب الأسنان كارنيك ، لا يمكننا إغفال هٰذه القصّة .

ذات صباح ذهب أبي إليه شاحبَ الوجه متألماً . وبعد التّحيّة ، والسُّؤال عن الحال ، قال أبي :

ـــ أنظرْ إلى عينيّ ووجهي ، يا صديقي كارنيك ! لم يَغْمَضْ لي جفن طوال الليل من وجع ضرسي . آخلعْه لي بسرعة وخِفّة يد ، إذا تكرّمت ، عسىٰ أن أتخلّص ممّا أُعاني من الألم !

قال كارنيك ، بعدما آبتسم وأُطلق بعض الشّتائم المجّانيّة :

ـــ مهلاً ، يا جورج . آجلس . ولنشربْ كأساً من العَرَق معاً ، فإنّه مفيد في وجعٍ مثل وجعك . ونحن لم نلتقِ منذ مدة . هاتِ ما عندك من أخبار . تكلّم ، فَضْفِضْ . علمتُ أنّك آخترعتَ نوعاً جديداً من الـ « د.د.ت. » ، فتعاليتَ وشمخت بأنفك ، وأنت لمّا تَحْظَ بلقب « دكتور » بعد !

أجاب أبي :

ـــ أجل ، يا كارنيك ! إلا أنّ آختراعي لم يُكتبْ له النجاح مع الأسف . فبدلاً من أن يقتل البعوض كدت أقتل به آمرأة ، ولولا أنها تملك قلباً قويّاً لما آستردّتْ عافيتها وتمكّنتْ من الوقوف على قدميها . لكنّ نفع آختراعي تأكّد في ما تلقّته الثعالب التي تختطف الدجاج : لقد أفرغتُ زجاجةً منه في جُحُور عددٍ منها فهلكتْ في الحال !

قال كارنيك :

ـــ أحسنتَ صُنعاً ، يا جورج ! أنت نفعتَ بلدتك .

وأخذ جُرعةً من العرق ، تمضمض بها غاسلاً أسنانه الذهبية .

ردّ أبي :

ـــ أجل ! إنّ المرء إنْ لم يهتمَّ بتطوير بلدته ، والعمل على نفع أهلها ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم ، يكون عدوّاً لها ! (ثم قال مُستدركاً) ولكن ... إلى أين أوصلتَني بالحديث ؟! هيّا آخلعْ ضرسي وخلِّصْني من مشكلته ، فإني قلق جداً .

لكن كارنيك قال :

ـــ آصبرْ ، يا جورج ! لسوف نُعالجه . آنتظر . لم تشرب شيئاً بعد . آحكِ لي المزيد . حدِّثْني عن الحرب العالميّة الثّانية ! من ذا الذي رَبِحَ فيها ، ومن خَسِر ؟ ماذا يفعل أرْمَنُنا ؟ مَن الذي قتَلَنا ؟ من كان يريد إبادتنا ؟ ما هي برامجهم المستقبليّة ؟ حدِّثني عن الرّوح الأنتقاميّة عند الأرمنيّ ؟ وعن التّكاتف في العمل ، من وجهة نظرك ؟ وماذا يترتّب على كلّ أرمنيٍّ أن يفعل ؟ قلْ ، تكلَّمْ ... فأنت عارف بهٰذه الأمور . لقد سمعتُ أنك تسهر ، حتى ساعةٍ من الليل ، وأنت تقرأ في الكتب ، حتى تأتّى لك أن تُثقِّف نفسك ... ولم ترض بأن تستسلم إلى العَرَق والنّركيلة !

قال أبي مُمتعضاً :

ـــ كارنيك ، عزيزي ! ليس هٰذا وقتاً مُلائماً لهذه الأحاديث ! لسوف أزورك ، يوماً ، وأنا في تمام صحّتي وعافيتي ، فأحدِّثك بكل ما تريد ... أما الآن ، فإني مشغول بما هو أهم : وجع ضرسي . هيَّا خلِّصْني منه ، أرجوك !

وأخيراً ، كرع كارنيك ثُمالة كأسه دفعةً واحدة ، وأهاب بأبي :

ـــ هيّا آفتحْ فمك حتى نفحص هٰذا الضرس !

وما كاد يلقي نظرة على الضرس المنخور ، والكمّاشة في يده ، حتى تلاحقت منه الشّتائم ، ثمّ قال وقد بدا عليه القلق :

ـــ ما هٰذا الضرس ، يا جورج ! أهُو سنّ جورج ، أم سنّ حمار ؟ ألا قل لي : هل هو سنّ آدميّ ، أم سنّ عفريت ؟ أريد أن أعرف !

ومع ما كان يُعاني أبي من الوجع ، فإنّه لم يفقد روح النّكتة ، قال :

ـــ بحدّ علمي ، يا كارنيك ، أني وُلِدْتُ آدميّاً ! أما بالنسبة لضرسي ، فإني لا أستطيع أن أُحدِّد نوع الحيوان الذي يُشبه أسنانه !

فألقىٰ كارنيك بالكمّاشة جانباً ، وقال :

ـــ ليس هٰذا من عملي ، يا جورج . ما عليك إلا أن تركب الآن ، وتسافر إلى بيروت ، في هٰذا اليوم نفسه ، لتخلع ضرسك في عمليّة جراحيّة ، لا مفرّ من ذلك .

وههنا أفرغ أبي كأسه في جوفه ، وخرج من عند كارنيك مفكّراً .

*

ولم يتأخر عن الذهاب إلى بيروت .

وهناك كاد الطبيب يقلع له عينَه ، وهو يُحاول أن يخلع له ضرسه !!

ابن أخت وزير خارجية فرنسا
في فندقنا

أراد أبي ، يوماً ، أن يُسافر إلى اللاذقية لقضاء بعض الأعمال فيها . فكان أن آحتلّ مقعداً بجوار سائق الباص « هرانت » .

في الطّريق ، عند نقطة الحدود السوريّة التّركيّة ، توقّف السّائق أملاً في أن يحمل معه رُكّاباً ممّن يَقْدِمون من تركيّا أو أوروبا . ولم يخبْ أملُه ، فقد كان هناك بضعةَ عشر شاباً ، بعيونٍ زُرْق وشعورٍ صُفْر ، ينتظرون .

صعِدوا إلى الباص ، فآكتظّ بهم الممرّ ، وجلس أحدهم بالمقعد الشّاغر بجوار أبي ، بعد أن بادر فألقىٰ عليه التّحيّة بقوله « بون جور » ، فآتّضح أنهم فرنسيّون !

وقد ردّ أبي عليه بتلك الكلمة الفرنسيّة التي كان قد تعلّمها من طبّاخنا اليوناني : « بون جور » ... وتمنّىٰ لو يتحدّث إليه ، لولا أنْ خانته اللغة ، فآعتصم بالصّمت على مضض .

ولكنّ الشّاب الفرنسيّ حلّ المشكلة ، عندما أخذ يتكلم مع أبي بلغةٍ

عربيّة سَلِسَة ، حول السّفر ، والطّقس ... وآنطلق أبي يُحدِّثه عن أمريكا الجنوبيّة ، وعن أنه قضىٰ ليلةً في باريس تعرّف فيها على حسناء فرنسيّة ، ولكنها آنصرفت عنه بعد أن عَجَزَتْ عن التّفاهم معه ! فضحك الفرنسيُّ وآحتضن أبي بمودّة .

وكان الباص يتزوّد ، على طول الطّريق ، بالرُّكاب . كان هرانت يتوقّف عند كل عابرِ سبيل ويلتقطه ، والرُّكاب يقفون في الممرّ كالمصلوبين ...

*

ثم إنّ الباص وصل إلى مخفر للدَّرَك عند نقطة تسمىٰ « نبع المرّ » .

وصعِد من هناك دَرَكِيٌّ وزوجته . وكان على الزّوجين أن يقفا في الممرّ مصلوبَيْن كالآخرين .

لكنّ الشّابّ الفرنسيّ ، بُحكم العادة في بلده وآحترام النّاس الزّائد هناك للجنس اللطيف ، قام من مقعده ودعا السّيدة إلى الجُلوس مكانه .

ورأىٰ أبي ، وقد آتّخذت الزّوجةُ مكانَها بجواره ، أنه لا يليق به أن يجلس إلى جانب آمرأة على حين يظلّ زوجها واقفا . فقام بدوره ، ودعا الدّركيّ للجلوس مكانه ، ولم ينتظرْ هٰذا تكرار الدّعوة ، بل آنقضّ على المقعد جالساً ، دون أن يَفُوه بكلمةِ شكرٍ صغيرة ، خلافاً لما فعلتْ زوجته التي شكرت الفرنسيَّ على أُرْيَحيَّته ... وزاد على ذلك بأن قال لزوجته :

ـــ آنظري إلى هٰذا الفرنسيّ ما أغباه ! يتنازل لنا عن مقعده !

قال ذلك دون أن يخطر في باله أنّ هٰذا الفرنسيّ يُجيد العربيّة كواحدٍ ن أبنائها !

عندما سمع الفرنسيّ ذلك ما كان منه إلّا ان أمسك بالدّركيّ وآنهال عليه صفعاً .

وآحتدم الشّجار داخل الباص ... حتى آضطُّرّ السّائق هرانت ـ الذي لم يكنْ من عادته أن يهتمّ بما يحدث وراءه ـ أن يتوقّف على جانب الطّريق ، ونزل الرّكاب أملاً في أن تُحَلّ المشكلة .

وأخيراً نطق الفرنسيُّ بالعربيّة قائلاً للدّركيّ :

ـــ بعد اليوم ، لا تقلْ لأحدٍ غبيّا !

فبُهِتَ الدّركيُّ عندما سمع الرّجل يتحدّث بالعربيّة ، وأُسقط في يده .

لكن ما لبث ، بعد أن آستردّ أنفاسه ، أن أخذ يُهدِّد الفرنسيَّ ، وهو يمسح عرقه ، ويقول :

ـــ سأُريك ، عندما نصل إلى اللاذقية ! سوف تقضي إجازتك في السّجن لتهجُّمك على آبن حكومة !

وتراءىٰ لأبي أن يتدخّل لحلّ المشكلة ، فأخذ الدّركيَّ من ذراعه ، ومشىٰ به بعيداً ، وأنشأ يقول :

ـــ يا جاويش ! أنت لا تعرف مَن يكون هٰذا الرّجل ! أمّا أنا فأعرفه جيّدا . لقد نزل في فندقنا بكَسَب في العام الماضي ، وهو آبن أخت وزير خارجيّة فرنسا ! إنّه إذا ما أبْرَق إلى خاله وزير خارجيّة فرنسا ، وأخبره بما

قلته أنت ، فإن الوزير سيهتف من باريس إلى وزير خارجيّة بلدنا ، ويهتف هٰذا إلى وزير داخليّتنا ، الذي سيهتمّ بالأمر كثيراً ، ويرىٰ فيه ضرراً للسّياحة في البلاد ، وإساءةً يُمارسها رجلٌ من الدّرك ، فيعود ذلك وبالاً عليك ، فقد تُنقل من هٰذه المنطقة إلى أخرىٰ نائية ، وقد تُصْرَف من الخدمة ... لذلك أنصحك بأن تكفّ عن التّهديد ، وأن تُعالج الأمر بالحسنىٰ ، وأن تعتذر له ، خصوصاً وأنك أنت البادئ بالإساءة بعدما أكرمك الرّجل حين تنازل عن المقعد لزوجتك !

فآقتنع الدّركيُّ بما قال أبي ، وآعتذر للشّاب الفرنسيّ .

وتابع الباص طريقه إلى اللاذقية .

المصور سركيس بولاديان

I

سَئِمَ جارُنا « سركيس بولاديان » من الكَسَاد في عمله ، وضجر من الفئران التي قرضتْ في دكانه البضاعة كلَّها وأخفق في القضاء عليها ... وراح يُعلن ، أمام أصحابه ، عن عزمه على تغيير عمله إلى آخر يسُدّ به رَمَقَه ، ولكنّه لم يُصادف بينهم مَن يجود عليه بالنُّصح ويدلّه على عملٍ بديل ، فآثر أن يعتصم نهارَه بالبيت مُلبّياً رغباتِ زوجته في ما تطلبه منه من قضاء حاجات البيت .

وأمّا زوجته ، وقد حزنتْ على ما يُعاني زوجُها من بَطَالة ، فإنها لم تجدْ ما تُسَرّي به عنه ، وهي التي يتلظّى قلبُها غضباً ، سوى الشّجار وإثارة النَّكد .

وتمرّ الأيام ... وتلوح تباشيرُ الصّيف الذي يحمل الخير إلى البلدة .

وكان سركيس قد هجر الدُّكان ، ولم يخطرْ له أن يُلقي عليها نظرةً ، ليقينه من أنّ الفئران قد أتتْ على كلّ ما فيها ، حتى رُفُوفها الخشبيّة .

II

بحُلول الصّيف ، أراد سركيس ، يوماً ، أن يتنسّم الهواء بعيداً عن البيت . فخرج إلى السّاحة ، حيث مقهىٰ البلدة . وهناك رأىٰ جماعةً من السُّيّاح الأوروبيّين يُصوِّرون ما تقع أعينُهم عليه بآلات تصويرٍ حديثة تبهُر الأبصار .

فوقف في مكانه مذهولاً ، يفرك عينيه ، مُتطلّعاً بلهفةٍ إلى هٰذه الآلات ، وهي تلتقط الصُّوَر : جُخْ ، جُخْ ... بسرعةٍ مُتناهِيَة ، وتبرُق في كلّ لقطة ، فيُخيَّل للنّاظر أنّ برقاً قد ٱلتمع في المكان !

هٰهنا أشرقتْ في ذهنه فكرة ، تغلغلتْ حتى أعماق نفسه ، وجعلتْه يُردِّد بينه وبين نفسه : « الحمد لله ، الحمد لله ، وجدتُها : صنعة التّصوير ! » .

وحملتْه هٰذه الصّنعةُ ، النّظيفة المُدرّة للرّبح ، مع الأحلام إلى جنّة الخُلْد . وبدلاً من أن يدخل المقهىٰ ، ٱرتدّ على أعقابه مُتوجِّهاً إلى البيت ، ليحمل إلى زوجته البُشرىٰ بعملٍ جديد .

فلمّا ٱستمعتْ « أوصانّا » إلى حديثه ، شَخَصَتْ بناظريها إلى بعيد ، ثمّ صاحتْ غاضبةً :

ــ تبّاً لك ! أين أنت من فنّ التّصوير ؟ إنّ بدني يقشعرّ ممّا أسمع ! من الذي أوْحىٰ إليك بهٰذه الفكرة ؟ ٱسمعْني جيّداً ، يا سركيس : ٱذهبْ غداً ، وٱفتحْ دكّانك ، وعُدْ إلى عملك المعهود . الرّزق على الله . ما يتفضّل به علينا يكفينا . لا تندفعْ وراء أفكار جنونيّة . أولادنا في حاجة إلى مَن يُعيلهم .

قال سركيس وهو يحُكّ رأسه مُفكّراً :

ــ لا تهتمّي ، يا آمرأة ! لسوف أكون المُصوِّر الوحيد في كَسَب ، وسيبقىٰ آسمي خالداً . أمّا الدّكان فلا تذكريها لي ، فإنّها مملوءة بسُموم الفئران .

قالت أوصانّا :

ــ لا ، يا سركيس ، لا ! لا تَعْقِد أملاً على وجوه النّاس المُتغطرسين ، وإلّا حطّمتَ قلبَك وكسرتَ خاطرك !

غير أن سركيس لم يُعِرْ آهتماماً لبلاغة زوجته ، لا ولم يشأ أن يُصغي إليها . وصحّ عزمُه على أن يُسافر في غده إلى دمشق . ودخل غرفة النّوم ليُرتّب حوائج السّفر ، وآمرأته من وراءه تصيح ، جاهدةً أن تمنعه ، قائلةً ، بلهجةٍ أرمنيّة كَسَبِيَّةٍ ممزوجةٍ بالتُّركيّة ، ما معناه :

ــ ويلك ، يا سركيس ! إيّاك أن تذهب ، فتندم ولن ينفعك ندمك !

ولكنّ آلات التّصوير ، التي أخذتْ عقله ، جعلتْه لا يتخيّل غيرها ولا يسمع غير صوتها : جُخ ، جُخ ... ولم يجبْ بكلمةٍ على آعتراضات آمرأته ، وهَجَعَ – بعد أن رتّب حقيبة السّفر – في سريره ، وسَحَبَ اللحاف إلى ما فوقَ رأسه ، تهرُّباً من مُضايقات زوجته وآستعجالاً للصّباح !

III

غاب سركيس بولاديان ، عن كَسَب أياماً ثلاثةً أو أربعة ، عاد

بعدها ومعه صُندوقٌ يحتوي على آلةٍ للتّصوير ، حديثة ، أثارتْ في نُفوس النّاس آستغراباً ، ونشرت البلبلة في طُرُقات البلدة ، فكان كلّ مَن تقع عينه على الصُّندوق يستشعر الخوف ، ويتعجّب ، قبل أن يُبادر إلى الاستفهام عمّا في هٰذا الصُّندوق العجيب ؟!

وسركيس يُجيبهم ضاحكاً :

ـــ لا تخافوا ، يا أصحابي ! هٰذا ليس تابوتاً ! إنّه آلة تصوير ، هي النّذير بيوم القيامة والبعث من جديد . إنّها بذرة الطّبيعة . هي ، بالاختصار ، مُتْحَفُ الذِّكريات الخالدة !

وآنتشر الخبر في كلّ مكان في البلدة ، وتسرّب إلى القُرىٰ المُجاورة . سركيس بولاديان يضع حجر الأساس لمهنة التّصوير الضّوئي في كَسَب . الخبر صحيح وليس مِزاحاً . صاحب تلك الدُّكان ، التي تصُول فيها الفئران ، أصبح مُصوِّراً !

وكلمة مُصَوِّر باللغة الأرمنيّة هي « لوسانغاريتش » ، وكلمة منير بالأرمنيّة « لوسافوريتش » ، والفرق بين اللفظين بسيط جداً ، ممّا حمل على الظّنّ بأن سركيس الدُّكّنجي قد صار « مُنيراً » ، أيّ مُبَشِّراً دينيّاً ...

وكان يَرُدّ على مَن يستفسره في ذلك :

ـــ لا فرقَ بين الإثنين ، يا أصدقائي . فمن دون المُنير لا يتِمّ التّصوير . وأنا باتّخاذي التّصوير مهنةً ، أُنْشد الخير لبلدتي ، ولأبنائها ، فأُخَلِّد ذِكْرهم . إنّي أجمع بين المُصوِّر والمُبشِّر !

IV

وفي يومٍ غائم آستفتح سركيس عمله بتصوير جاره وقريبه « أنترانيك بولاديان » . وبعد يومين من العمل الشّاقّ ظهرتْ ، على قطعة ورق ، ملامح رأسٍ في غابة ، ولكنّها ملامح غير واضحة ، ولا تدلّ على صاحبها . ولكن لم يكن بدّ من أن تُسَلَّم الصّورة إلى صاحبها . فلمّا رآها أنترانيك صاح ، وقد تجهّم وجهه أكثرَ من تجهُّمه المُعتاد :

ــ إنّي أذكر جيّداً ، يا سركيس ، أنّي لحظةَ تصوُّرتُ لم أكن نائماً ، بل جالساً على كرسيّك مثل جندي مِغْوار . وأرىٰ أنّك ، في الصُّورة ، نوَّمْتَني ، بل خنقتَني ، ولَفَفْتَني بوشاح أسود ! التّصوير فنّ وذوق ، فلِمَ كلّ هٰذا السَّواد ؟ أين وُعُودُك بالآزدهار ، وبالخُلود ، يا سركيس ؟!

أجاب سركيس :

ــ طَوِّلْ بالك ! لا تصرخْ هٰكذا ، ولا تنزعجْ كلَّ هٰذا الآنزعاج ! لا تكنْ مُتشائماً . الذَّنب ليس ذنبي ، بل ذنب الطَّقس ! ثم أنت جاري وقريبي ، وتغضب منّي إلى هٰذا الحدّ ، فماذا يفعل الغريب ؟ هل يتشاجر معي ؟ إنّ لم نتحمَّلْ أخطاء بعضنا بعضاً ، ونَسُدَّ النّواقص ، فمن تُراه يتحمَّلها ؟ أتُريد أن تُضحِك الأغراب علينا ؟ آذهب اليوم ، وعُدْ إليّ في يومٍ مُشمِس ، يا آبن العمّ ، فأُصوِّرك ثانيةً ، وعندئذ ستُغيِّر رأيك فيّ ولا شكّ . لا تنسَ أن يكون اليوم مُشمساً رائقاً . ولسوف ترىٰ ما معنىٰ كلمة صورة ... صورة تجعل كلَّ مَن تجاوزت الأربعين من عمرها تقع في حبّك !

فلمّا سمعتْ أوصانّا آخر كلمات زوجها ، آنقضّتْ عليه مثل عُقَاب ، قائلةً :

ــ أنت آبتدعتَ مهنةً جديدة فقبلناها ! ولكنْ ما هٰذه الأقوال ، التي غُذْتَ من العاصمة ، تُتحفنا بها ؟! تبّاً لك ولما جئتَنا به . أتقع في الحبّ بعد سنّك هٰذه ؟! الموت أَوْلىٰ بك . تبّاً لك . الرّماد في عينيك !

فصاح بها سركيس :

ــ كفىٰ ، يا آمراة ! أنت تجاوزتِ الحدّ . آفهمي ما أقول أولاً ، ثمّ تكلّمي . هٰذا طبعكنّ معشرَ النّساء : أنتنّ تتهرّبن من الحبّ في أوانه ، ثم تبحَثْنَ عنه بعد فوات الآوان ! (ثمّ أخذ يتفلسف) هل تظنّين أنّ هناك فنّاناً دونَ حبّ ؟! هل يتسلّق أحدهم شجرةً مليئةً بالثّمار ، ولا يأكل منها ثمرة ؟ هل يُمكن للفنّان أن يُحسّ دون أن ينظر بعينيه ؟ ثمّ هل من اللياقة ، يا آمرأة ، أن تُواجهي آمرءاً ولا تُحدّثيه عن الفنّ ، وعن الحبّ ؟!!

قالت أوصانّا ، وهي تتوجّه نحو المطبخ :

ــ وأين كانت عباراتك هٰذه قبل اليوم ، يا سركيس ؟!

أمّا أنترانيك ، فبعد أن آستمع إلى حوار الزّوجين ، وَعَدَ بالعودة مرّةً أُخرىٰ .

V

أخذ الفنّان المُصوّر سركيس بولاديان يتفانىٰ في عمله .

ولكن كانت وجوه القَرويّين الذين يُصوّرهم تظهر مرّةً مُشرقةً مُنيرة ، وأُخرىٰ قاتمةً مُعتِمة ... فيخرج من عنده ذو الصّورة المُشرقة

ضاحكاً ، ويعود إلى بيته فَخُوراً بصُورته ! ويُغادره ذو الصُّورة القاتمة مُرْغِياً مُزْبِداً ، مُنزعجاً مُغتّماً . وكثيراً ما عادوا إليه وقد أنكروا صُوَرَهم التي لا تَبين فيها ملامحهم ، أملاً في ترميم ما يُمكن ترميمه ، أو إعادة التّصوير مرةً أُخرىٰ .

ويكون رَدُّ سركيس عليهم في كل مرّة :

ــ قلتُ كثيراً ، وأُكرِّر الآن : إنّ الوجه هو نفسه والملامح ذاتها . ولكنّ الصّورة هي التي تتغيّر ، وحسب الظُّروف المُحيطة بالمُتَصَوَّر ! ولا يمنع ذلك من أن يتصوَّر أحدُكم في كلّ وقت : اليوم ، غداً ، بعد غد ... فتظهر الصّورة مثلَ الوجه الذي وقف أمام العَدَسَة . كم قلتُ لكم هٰذا ! ولكن يبدو أنّي أنا الذي أقول وأنا الذي يسمع ، ولا أحد منكم يسمعني . إنّي أقول لكم : تعالوا إليّ للتّصوير في يومٍ مُشمس ! وأنتم لا تأتونني إلّا في الأيّام الغائمة والضّبابيّة . فإذا آمتنعتُ عن تصويركم غضبتم ! فإن آستجبتُ فصَوَّرتكم وظَهَرَت الصّورة قاتمةً غضبتم أيضاً ! ماذا أقول لأصحاب النُّفوس المريضة اللا مبالية ؟.. أُكرِّر ، يا إخوتي : الوجوه لا تتغيّر ، وفنّ التّصوير ثانويّ ... المهمّ أن تأتوني في الوقت المناسب !

VI

وإذا كانت أخطاء سركيس بولاديان وسَقَطاتُه ظلَّتْ طيَّ الخفاء ، فإنّها لا يمكن أن تخفىٰ على أبي ، قويِّ المُلاحظة المُرْهَفِ السّمع .

ففي صباح يوم مُشرق ، تَوَجَّه أبي إلى المُصوِّر سركيس ، للتّصوير

والمِزاح ! وعانق سركيس أبي عِناقاً حارّاً ، ذلك أنّه لم يلتقِ به منذ مدّة ، ودعاه إلى الدُّخول . وأقبلتْ أوصانّا للتّرحيب بأبي بعد طويل غياب ، وقدّمتْ له السّكاكر والحلويات .

وأخذ أبي ، في هٰذا الأستقبال الحارّ ، يُلقي ببعض النُّكات ليزيد الجوَّ مَرَحاً .

إلى أن حانتْ ساعةُ التّصوير !

آقترح سركيس على أبي أن يجلس بوضعٍ مُعَيّن ، على كرسي ، أمام العدسة . فآستجاب أبي ، وجلس كالُممثّل يُنفّذ توجيهات الُمخرج .

وينشغل الُمصوّر بآلته حيناً ، فيغوص تحت السّتارة السّوداء ويغيب ... فيبتسم أبي ، وتتّسع آبتسامتُه ، ولكنْ ما مِن مُلاحظٍ أو مُشير .

وفجأةً يَخرج سركيس من الصُّندوق ، هاتفاً :

ـــ جيّد جدّاً ، يا جورج ! أنت محظوظ ، فالشّمس تسطَع ، ولسوف تحظى بصورةٍ رائعةٍ صافيةٍ كالمرآة !

ولا يردّ أبي ، ويكتفي بالآبتسام . ويعود سركيس إلى الغَوْص في صُندوقه .

وفجأةً ظهرتْ في السّماء سَحابةٌ كبيرة داكنة ، حَجَبَت الشّمس فأظلمت الدُّنيا ، وهبّتْ ريحٌ باردةٌ كالسّهم آخترقتْ الجوّ ... همّ أبي بأن يقول شيئاً ، ولكن طَقّة : جُخ ، جُخ ، أنْهت الموضوع . وأخرج سركيس رأسه من الصُّندوق ، مثلما أخرجت الشّمس رأسها من بين السّحاب .

قال سركيس :

ـــ جورج ! ستحظى بأروع صورة . تعالَ بعد يومين فآستلمْها .

وذهب أبي بعد يومين ... فماذا رأى ؟ كانت في الصّورة مناظرُ طبيعيّة بدا فيها رأسُ صخرةٍ عاتية !

هتف أبي :

ـــ ماذا فعلتَ ، يا سركيس ، يا جاري العزيز ؟ لقد ملأتَ المنظر بشعرٍ نسائيّ ، ماذا يفعل رأسي بين هٰذه الصُّخور ؟ أمّا أنفي الأرمنيّ فإنّه لا يُشبه حتى الأنف العربي . وما هٰذا الذُّبول في العينين ، والسّواد في الحاجبين ، وفِقداني إحدى أُذُنيّ ؟! نشرتَ عنقي ورميتَه ! هٰذا لا يجوز أبداً ! أنا غيرُ راضٍ . فلأجلسْ من جديد لتُصوِّرني مرّةً أُخرى ، لعلّ الصّورة تأتي أفضل من هٰذه !

فقال سركيس بلهجةٍ آجتهد أن تكون مُقنعة :

ـــ ماذا تقول ، يا جورج ؟ حاولْ أن تنظر إلى وجهك برُؤْيةِ فنّان ، وعندئذٍ تنال إعجابَك بالتّأكيد . إنّي أعرفك ذَوّاقة ، وما أُحِبّ أن أسمع منك هٰذا الذي تقول . مِن كلّ وجداني أقول لك إنّ صورتك هٰذه أفضلُ صورةٍ آلتقطتُها حتى الآن .

قال أبي بعناد :

ـــ لا ، لا . لم تعجبْني . سأجلس مرةً أُخرى لتُصوِّرني . ولكنْ أرجوك ، صوِّرْني هٰذه المرّة بأذنين ، وحافظْ على أَرْمَنِيّةِ أنفي ، ولا تُسوِّدْ ما في حاجبيّ من آحمرار . أعِدْ لعينيّ نظرةَ الصَّقر بكلّ حِدّتها

وحَيَوِيَّتها ... وأخيراً ، يا سركيس ، لا تنشرْ عنقي ، فالرّأس بلا عنق كالحوض بلا صنبور !

أجاب سركيس مُمتعضاً :

ـــ حسن ، آذهب الآن ، وعدْ إليّ في يومٍ آخر ، لأُصوّرك حسب ما تُريد .

فسأله أبي :

ـــ ولِمَهْ ؟ ألا يُمكن تصويري الآن ؟

فيصرخ سركيس :

ـــ هل جُننْتَ ، يا جورج ؟ أَيَصُحّ التّصوير في مثل هٰذا الطّقس ، بما فيه من رياحٍ وضباب ؟!

VII

وفي أحد الأيّام جاء إلى أبي قرويٌّ من أصحابه في قراداش ، وكان مُحِبّاً للمِزاح ، قال :

ـــ آنظرْ ، يا جورج ، إلى بِدَع هٰذا الفنّان سركيس ! لقد صوّرني أمس ، فآنظرْ ، كيف تجد وجهي !

فسأله أبي :

ـــ وكيف كان الجوّ يومَ تصوّرت ؟

أجاب القاراداشي :

ـــ غائماً شديدَ الرّياح !

فأجال أبي طَرْفَه في الصّورة ، ثمّ قال :

ــ لا ينقصك سوى قرنَيْن ، يا صاحبي ، حتى تصير شيطاناً !!

VIII

ويكتسب سركيس ، الفنانُ المُصوِّر ، بعد مدّةٍ من الزّمن ، شهرةً في الوَسَط الذي يعيش فيه ، وتتّسع شهرتُه حتى تجتذب السّيّدات والآنسات اللواتي غَدَوْنَ من زُبُنِه ... ممّا آضطرّه إلى أن يُزاول العمل نهاراً وليلاً دونَ أن يتسرّب إليه التّعب أو المَلال .

ونظر ، في يومٍ ، إلى زوجته ، فراق له حُسنُها وجمالها ، وأبدى رغبته في تصويرها حارّةً ، لتبقى الصّورة لهما ذكرى خالدةً شاهدةً على حبّهما العميق . ولم توافقه أوصالُنا أولَ الأمر ، لكنّها آستجابتْ أخيراً لمعسول كلامه ، ووعدتْه بأن تنزل عند رغبته يوماً .

وجاء يومٌ ربيعيٌّ بديع ، أطالتْ فيه الوُقُوف أمام المرآة ، تتزيّن ، ثم زَغْرَدَ لسانُها بشتيمة . ومَشَتْ كنبيلة من النّبيلات ، وجلستْ على كرسيٍّ يبعد ثلاثة أمتار ، أو أربعة ، عن آلة التّصوير العظيمة ، مستسلمةً ليدَيْ زوجها الفنّان البارع !

وأحبّ أبي أن يستفيد من هٰذا اليوم الرّبيعيّ عينِه ، فتوجّه إلى المُصوّر ... وهناك رأى آستعارَ حرارةِ الحبّ بين الزّوجين ، فقال مُتحمّساً :

ــ يا لَسَعْدِكما ! تُحْسِنان آستغلالَ الطّبيعة ، فتتعاطفان في ظلّها ويتمنّى كلٌّ منكما الخير للآخر ! فليباركْكُما الله ، وليكنْ ثالثَكما في كلّ أموركما ، وليُثبّتْ أقدامَكما .

قالت السّيّدة أوصانّا :

ـــ يليق بك ، يا أخ جورج ، أن تكون قسيساً ، بدلاً من أن تُضيِّع عمرك في التّجارة !

فأجاب أبي :

ـــ أنا لا أميل إلى الكَهَنوتيّة . ولو أنّ كلّ مَن عَلِم شيئاً أمسى قسيساً ، لما بقي للقساوسة أحدٌ يَعِظُونه !

وسادَ ، بعد هٰذا الحوار ، سكونٌ هادئ ، فبدا وكأنّ القُلُوبَ تنبِض ، في أحضان هٰذه الطّبيعة الجميلة ، بحَيَوِيّةٍ وحنان ، فكلّ ذرّة تصبُو إلى خيرٍ منها ، تبتَسم وتحيا .

آرتفع ، فجأةً ، صوتُ الفنّان سركيس ، يشُقّ سكونَ الطّبيعة ، بنبرةٍ رقيقة ، خارجاً من ظُلُماتِ عالَمِه ، ليشدّ آنتباه زوجته ويطلب منها الأبتسام ... فتبتسم أوصانّا قليلاً .

يصيح سركيس :

ـــ آبتسمي أكثرَ فأكثر ، يا أوصانّا .

وتبذل المرأة جهدَها في أن تبتسم على نحوٍ ما يُرضيه ... فكانت آبتسامةً مُتكلِّفة ، أشبهَ بإشراقة شمسٍ من وراء الغُيوم . أجل ، آبتسامة مُصطنعة ، كشفتْ عن أسنانها المُسْوَدّة .

وأمّا أبي ، فكان يُغمغم تحت أنفه : ما أُدْناكِ من الموت ، أيتها البسمة المُصطنعة ! جافّة موحشة كالقُبور ، لا يُطاق النّظر إليك ، لولا زقزقةُ العصافير تروح وتجيء فتُشكّل ملاعبَ الأمواج الفَوّاحة ، وأُنشودةَ أيّار الصّدّاحة ، بسمةَ الرّبيع الحارّة الصّادقة !!...

وينتهي كلّ شيء : جُخْ ، جُخْ !

ويكتنف الهُدوءُ كلَّ شيء ، وتكُفّ القلوب عن الخفقان ، وينتزع سركيس رأسه الكالح من عالمه ، ويُرسل من عينيه الزّرقاوين الحانيتين نظراتٍ إلى زوجته وكأنّه يقول لها : قد آنتهينا ، يا آمرأة ! فماذا تنتظرين ؟!

وتَنْتَبِهُ أوصانّا ، وكأنّها تستيقظ من حُلُمٍ جميل . فتنهض وتتوجّه إلى المطبخ بصحبة ألفِ سعلةٍ وسعلة ، لتُحَضِّر القهوة .

ويتصوَّر أبي في يومه هٰذا ثانيةً . ويتسلَّم الصّورة بعد يومين ، فرأىٰ ما لم يُصدِّقْ : بدا وجهه في الصّورة كاملَ الأوصاف ، لا ينقصه سوىٰ النُّطْق ! فأطال النّظر إلى الصّورة مُندهشاً مبهوتاً ، ثمّ هتف مسروراً :

ــ ما كنت أعرف أنّك فنّان إلى هٰذا الحدّ ! أُهنّئكَ من كلّ قلبي . إنّي على يقينٍ من أنّك ستتفَوَّق ، بعد سنواتٍ قليلة ، بفنّك على الأوروبيّين (ويُضيف وهو يدسّ الصّورة في جيبه) في هٰذه المرّة أصبحنا نُشبه الآدميّين !

فردّ سركيس :

ــ وهل تستحي أن تقول : « أصبحتُ ، الآن ، أُشبهُ الأرمنيّ ! » ؟

IX

وجاءت إلى سركيس ، يوماً ، آمرأةٌ قد تَوَشَّح وجهُها بالحزن ، تُرافقها آبنتُها الصّغيرة ، للتّصوير . فآستقبل هٰذه الزّبونةَ ، غير المعروفة ، بآحترامٍ زائد . وبعد أن عَهِد إلى آمرأته أوصانّا برعاية الطّفلة ، دعا

السّيّدة إلى الجُلوس على الكرسيّ المُواجه لآلة التّصوير . وقبل أن يغوص في عالمه المُظلم ، وينتقل إلى الطَّقْطَقة المعهودة : جُخْ ، جُخْ ، طلب من المرأة الأبتسام . لكنّ وجه المرأة المحزون المهموم لم يبتسم ، بل لم يكنْ يُريد الأبتسام ، فقال :

ــ أبتسمي ، يا سيّدتي ! أبتسمي ولو أبتسامةً مُصطنعةً دقيقةً واحدةً فقط ، فمن دون الأبتسام لا تنجح صورتك .

لكنّ هٰذه الزّبونة أصرّتْ على رفض الأبتسام ... وأخيراً أخرج سركيس رأسه من الصّندوق ، وسأل المرأة في لهجةٍ لا تخلو من قَلَق :

ــ ولكن ، لماذا لا تُريدين الأبتسام ، يا سيّدتي ؟ ما السّبب في حزنك هٰذا كلّه ، ويأسك ؟

أجابت المرأة :

ــ لا بأس ، يا معلّم . صوّرْني كما أنا . إنّي أعشق الحزن ، وأنا على هٰذا منذ ولادتي . لم أعرف البسمة ، ولا الفرحة ، ولا الحبّ . قضيتُ عمري وأنا أُرافق الحزن والألم والحِداد ، وإنّي مُعتادة على ذلك ... صَوِّرْ ، يا معلّم ، صَوِّرْ !

وقد تأثّر سركيس من هٰذا الكلام أيّما تأثُّر ، وأَكَبَّ على عمله ، فدخل إلى عالمه في الصّندوق المُظلم ، وصَوَّر .

أجل ، في ذلك اليوم الرّبيعيّ المُشرق الضّاحك ، تعرّف سركيس على قلبِ أمرأةٍ مُرهف ، يعيش في شتاءٍ دائم ، في عالَمٍ مُغلَق تصطرع فيه العواصف والرُّعود . في ذلك اليوم البديع ، رفع سركيس عينين حزينتين إلى السّماء ، وتمتم ببضع كلماتٍ مُبهمة .

وخرجتْ صورةُ المرأة ، فآتّخذها سركيس رمزاً مُجسّداً للحزن ، ذكرىٰ للحِداد وللآستشهاد . وكان ينظر ، بعينين لا تطرِفان وبأفكارٍ تَمُور في داخله ، إلى الوجه الفائض بالحزن والكآبة ... وشعر ، فجأةً ، بثورةٍ نفسيّة عارمة تشمَل كيانه . وأدرك أنّ الحياة ليست آبتساماً وحَسْب ، أو بسمةً مُصطنعةً مُؤقّتة ... وها هي ذي تتّضح له بكلّ جبروتها ، وأشكالها المُختلفة ، وصبغتها المُتغيِّرة .

ويتحدّث سركيس ، بعد أيّام ، في النّادي ، عن تلك المرأة دائمةِ الحزن ، المحرومة من الآبتسام .

فيُبدي أبي رأيه ببساطةٍ مُتناهية :

ـــ أجل ، يا سركيس ، أجل . آجتهِدْ في أن ترىٰ المرء كما هو . لا تُحاول أن تُجبره ! لا تُقَيِّدْه ! لا تضغطْ عليه ! وعندئذ ترىٰ الظّرف الطبيعي والقرنىٰ !

X

ولقد ظلّ سركيس بولاديان ، بعد ذلك اليوم ، يُصَوِّر ، على مدىٰ سنوات ، ويُصَوِّر ...

والوُجوه أمامه تتغيّر ، كلّ يوم : مُتبسّمةً بعَفويّةٍ أحياناً ، ومحزونةً مفجوعةً أحياناً أُخرىٰ ، أو يراها باكيةً ، شقيّةً ، وَجِلةً ، أو مسرورةً مُستبشرةً .

ومع رحلة الأيّام ، أمسىٰ سركيس ، الفنانُ الوحيد المُصوِّر في بلدتنا ، يُرىٰ وهو يرفع رأسه أحياناً إلى السّماء ، ويهتف :

ـــ إيه ، أيّتها الوُجُوه العجيبة ! إيه أيّتها الدُّنيا الخدّاعة الغامضة !!

السنيور

I

هو آبنُ الأخِ الأكبر لـ « قُنصل » بلدتنا !

كان قد هاجر ، في شبابه الباكر ، إلى أمريكا الجنوبيّة ، وعاد إلى مسقط رأسه ، كَسَب ، بعد أن آستنزف شبابه هناك ، ولقّبه أهل البلدة بـ « السّنيور » .

أراه في جَوانب السُّوق ، أو في أيّة زاويةٍ مُنعزلة ، واقفاً ، صامتاً ، غارقاً في أفكاره . كان نحيل الجسم ، ذا عينين هادئتين زرقاوين في مِثل زُرقة البحر ، شاحبَ الوجه ، تتبدّىٰ في مُحيّاه بسمةٌ وكأنّها تتحرّق ، مُعتمراً قُبّعةً قد جار عليها الزّمن .

كان يُؤدّي كلّ ما يُعْهَد إليه من عمل ، بُغيةَ الحُصُول على لقمةٍ يَتَبَلَّغ بها .

وبدا أنّه كان قد أُعفيَ من الخِدمة العسكريّة وهو في المَهْجر ، بدليل أنّه لا يتلقّىٰ مثلَ « الشّيك » الذي يصل إلى عمّه ، القُنصل ، مَعاشاً

شهريّاً . ولمّا طال به التّسكّع في السّوق ، عزم أخيراً على أنْ يستفيد من المُدّخر القليل الذي عاد به من المهجر ، فآستأجر دُكاناً ، بجوار القهواتي ميناس ، يبيع فيها الحلوىٰ ... فكُنّا نذهب جماعاتٍ لنأكل عنده البَقلاوة .

والسّنيور يُحبّ الصُّحبة ، والمُتعة . وهو مُتحدِّثٌ لَبِق ، وعريقٌ في شُرْب العَرَق . كنّا نفهم نفسيّته جيّداً ، ونميل إلى مُمازحته ، فهو طيّبٌ وديع ، لا يُؤذي أحداً ، ويُعامِل النّاس جميعاً بمودّةٍ غامرة .

وكان إذا ما تناول بِضْعَ كُؤوسٍ من العَرَق الصِّرْف ، فآنتشىٰ ، آنحلّتْ عُقدةُ لسانه ، وما عاد يتوقّف عن قَرْع الكُؤوس وشُرب الأنخاب ، وعن الحديثِ وإلقاء الخُطَب مدىٰ يومين مُتواليين !

وعندما يسترسل في الحديث عن بنات أمريكا الجنوبيّة ، ووَصْف مفاتنهنّ ، يَرِقّ حتى يُمسي مثلَ رقائق البَقلاوة ! وينطلق يُغني ، بالإسبانيّة التي لا نفهمها ، أغنيةً يُؤدّيها بإحساسٍ عميق ، وفي كفه ، الكبيرة البرونزيّة اللون ، عجينةُ البَقلاوة ، يُحَضِّرها ، قبل أن يَعْهد بها إلى الخبّاز « كرابيد » يخبزها بعنايته وبذوقه الرّفيع .

II

ذات يوم ، رأينا السّنيور – وقد ذهبنا إليه لنأكل البَقلاوة – وهو في مَعنويّةٍ عالية ، وحيداً أمام كأس العَرق ، يُغنّي سعيداً ، أُغنيةً إسبانيّةً وكأنه هو الذي لحّنها ... على حين آرتفع ، من النّاحية الأُخرىٰ ، صوتُ القهواتي ميناس مُغنّياً بالتُّركيّة أُغنيةً يطرب لها أيّما طرب .

بترحيبٍ زائد آستقبلَنا السّنيور . وبعد أن أخذْنا نصيبَنا من البَقلاوة ، آلتفتُّ إليه أسأله :

ــ سِنيور ! أنت ، اليوم ، مُنشرِحُ الصّدر على غير مألوف عادتك ، أدام الله عليك الفرح . هل لك أن تُحدّثنا عن جوانبَ من حياتك التي قضيتَها في أمريكا الجنوبيّة ؟ فإنّا سنُسَرّ لذلك كثيراً .

أرسل إلينا السّنيور نظرةً من عينين تبتسمان ، ونطق بعدّة كلماتٍ إسبانيّة لم نفهمْها ... ثمّ أنشأ يتحدّث عن حياته ، بلغةٍ أرمنيّة مُتميِّزة ، قال :

ــ آبتدأتُ ، من اليوم الأوّل من أيّام غُربتي ، العملَ عند صانع حلوىٰ عاملاً مُتمرِّناً . وظللتُ عشر سنين في هٰذه الصّنعة ، تعلّمتُ خلالها صُنع أصناف كثيرة من الحلوىٰ . ولما كنت أعرف أنّ أفضل الحلوىٰ في مسقط رأسي هي البَقلاوة ، لذلك تَرَوْن أنّني لا أصنع غيرها الآن . وعندما قرّرتُ ترك هٰذه المهنة ، يا أبنائي ، وأنا في مطلع شبابي ما أزال ، كنتُ أتطلّع إلى مهنةٍ أُخرىٰ تَبْرُز فيها مهاراتي ويشتهر آسمي . وبعد تفكيرٍ طويل وجدتُها ، وقرّرتُ العمل فيها ... تلك هي مهنة التّصوير الضَّوئي .

لا أُريد أن أمتدح نفسي . ولكنْ يَحْسُن أن تعلموا أنّي كنت شاباً وسيماً ، وبعد عشر سنوات وأنا أتغذّىٰ بالحلوىٰ ، بدأ العسلُ يقطر من شفتيّ ، وبدا خدّاي مثلَ أوراق وردةٍ حمراء ، وأمّا عيناي فأشبهتا بحراً تَمَيَّز بالحُسن والعُمق .

وهٰكذا آرتديتُ ، يوماً ، أنيقَ الثّياب ، وتجمّلتُ بكلّ ما يُرضي

النّظر ، وسافرتُ إلى مدينةٍ تُسمّى « مونتو فيديو » . وفي تِجْوالي في أبرز شوارعها ، دخلتُ أوّلَ محلٍّ للتّصوير صادفتُه .

وأخذ السّنيور ، هنا ، رشفةً من العَرَق ، وتناول قطعةً من البَقلاوة ، وراح يمضغها مُتمهّلاً ... ونحن صامتون ، نُتابع حديثه .

وجدتُ ، هناك ، رجلاً أشيب ، وراء منضدة ، وإلى جواره فتياتٌ يتبادلن الحديث ، مُتضاحكات .

حيّيتُه بآحترام . وعرضتُ عليه رغبتي في العمل عنده . فتفحّصني ، وأنا أقف أمامه ، من قِمّة رأسي حتى أخمص قدميّ ... ثمّ آبتسم ونهض إليّ يقول :

ـــ تفضّلْ ، أيها السّيّد ! آجلسْ . ألْتمس منك المعذرة . إنّ عندي ، اللحظةَ ، موعداً هامّاً ، آنتظرْني ، وسأعود إليك بعد ربع ساعة ، لأبحث في طلبك .

ودخل إلى بابٍ جانبي ، وغاب وراءه .

جلستُ ، وأنا أتلفّتُ حَواليّ ... وسَرّحَ ناظري بين آلاف الصُّور المُلوّنة المُعلّقة على الجُدران ، التي تنشُر جوّاً فنيّاً فَوّاحاً مُمتعا . فكلّ صورةٍ منها كانت تصرُخ بالفنّ الجذّاب ، تماماً مثل شُعاعات الشّمس البازغة بألوانها الزّاهية الشّفّافة .

وحطّتْ عيناي ، دونما قصدٍ منّي ، على الفتيات اللواتي كنّ قد قطعن حديثهنّ وأخذن يرمُقْنني مُتَبسّمات ... وهٰهنا أحسستُ بأنّ ربيع حياتي قد بدأ يتفتّح ، أوّلَ مرّةٍ ، بأضواءٍ بديعةٍ مُلتهبة .

وسَرَحتُ في الخيال ، لحظةً ، نسيتُ فيها أين أنا ، غارقاً في سعادةٍ لا توصف ... وما رجعتُ إلى الواقع إلاّ بعودة الرّجل الأشيب .

وبدأ يستفسرني :

ــ أحسَب أنّك مواطنٌ من هنا ، يا سيّد ، أليس كذلك ؟

أجبتُه :

ــ لا ، مع الأسف ! فأنا لُبنانيّ ، ساقتْني الظُّروف إلى هٰذه البلاد !

ــ منذ متىٰ وأنت هنا ؟

ــ من عشر سنين تقريباً .

ــ ماذا كنت تعمل قبل اليوم ؟

ــ في صناعة الحلوىٰ .

ــ وما الذي يدفعك الآن إلى ميدان التّصوير ؟

ــ إحساسٌ غامض آنبثق في داخلي ، يا سيّدي !

ــ هل عندك أفكارٌ عن هٰذا العمل ؟

ــ لا ، مع الأسف ! لكنّي واثقٌ من أنّي سوف أحظىٰ بتقديرك الرّفيع ، ومَحَبّتك !

ــ على كلّ حال ، نحن ننتمي إلى وطنٍ واحد ، وأُمّةٍ واحدة !

ــ أنا أرمنيّ ، يا معلّمي .

هزّ الرّجل رأسه مُستحسناً :

ــ أوه ، أرمنيّ ! سمعتُ كثيراً عن الأرمن . إنّهم ماهرون ، أذكياء ،

أوفياء ، وذوو معشرٍ حَسَن . أنا سعيد بالتعرُّف إليك . عَرْضُك العمل عندي مقبول ، ويُمكنك المُباشرة صباحَ غد .

قلت وأنا أنهض :

ـــ لك شكري العميق ، يا معلّمي . لسوف أبذل قُصارىٰ جهدي للنّجاح في العمل ، وستثْبتُ لك الأيّام أنّ مَن يقف أمامك الآن قادرٌ على النّجاح ، وعلى التّكيُّف ، وعلى أن يكون محبوباً ونافعاً في الوقت ذاته .

فأجاب المُصوِّر :

ـــ آمل ذلك ، يا سيّد . ولْتَبدأْ عملَك غداً .

قلت ، وأنا أهمّ بالانصراف :

ـــ إلى الملتقىٰ ، يا سيّدي .

وعلى الرّصيف ، رأيتُ أولئك الفتيات ، يُلَوِّحن لي بأيديهنّ مُوَدِّعات ، ويُرسِلن قُبلاتٍ في الهواء !

III

ورَشَفَ السّنيور رشفةً من العَرَق ، وتابع :

آسمعوا ، يا شباب ! لم تكدْ تمضي عليّ سنة وأنا في هٰذه المهنة ، حتى كانت أشبهَ بلعبةٍ بين يديّ . وكان من مُؤدّىٰ ذلك أنّ معلّمي تعلّق بي ، وما عاد يستطيع الاستغناء عني لحظةً ، وطارت شهرةُ محلّنا حتى بلغتْ بلاداً بعيدة .

وكان عملي يقتصر على الجنس اللطيف ، فهنّ يتردَّدْنَ كثيراً على محلّنا . وهنا أدركتُ أنّ الحياة ليست أكلاً وشُرباً وحسب ، ولكنْ أيضاً الأستمتاع بمباهج الحياة وخيرات الطّبيعة وجمالها !

آسمعوا ، يا أولاد .

آفتُتح في مدينتنا معرضٌ للتّصوير الضّوئي . فأرسلتُ إليه خمس صورٍ من إخراجي ، حازت إثنتان منها الجائزةَ الكُبرىٰ . وكان يوم العرض ذاك ، يومَ آنتصارٍ لي ، ومجدٍ عُقِد تاجُه على رأسي . وكان عُرساً تحقّق فيه حُلُمُ حياتي . ونُشِر آسمي وصورتي في الصُّحُف مع قيمة الجائزة الماليّة . وصار النّاس يتحدّثون في كلّ مكان عن الفنّان الأرمنيّ الشّهير ، فآزدَهَيْتُ بنفسي ومشيتُ مُختالاً فَخورا .

كنتُ ، والحمد لله ، مُوفَّقاً في مجالي ، مُتمتّعاً بالصحة والعافية . وغدوتُ مُؤهَّلاً للزّواج ، قادراً على تكوين أُسرةٍ ، وتربية أطفال ، وتذَكُّر موطني . لكنّي لم أتمكّنْ من أنّ أفُكَّ رقبتي من قبضة بنات أمريكا الجنوبيّة ، وقد نَهَشْنَ لحمي ، ونُحُولي – الذي تُلاحظون – شاهدٌ على ما أقول . لقد أشْعَنَ الظّلام في روحي ، وسَوَّدْنَ حياتي وأذْبَلْنَها .

آسمعوا ، يا أولادي !

لا تتغرّبوا ، ولا تذهبوا إلى المهجر . آقتنعوا بقليلكم ، تَعايشوا مع مُرِّكم ، أَنْشِئوا بيتاً وأُسرة ، أَحِبُّوا الأرض والوطن .

آحتسىٰ السّنيور الجُرعة الأخيرة من العَرَق الصِّرْف ، وسدَّد إلينا نظراتٍ طافحةً بالحُمّىٰ ... وبضحكةٍ مُفعمةٍ بالحرارة أخذ يُنشد هٰذا القول الذي يُعبِّر عن مختصر حياته :

بناتُ أمريكا الجنوبيّة
سمراواتٌ ، جذّاباتٌ وناعمات
كلّهنّ سِحرٌ وجمالٌ ودلال
ولكنّي لن أعود إلى صُحبتِهنّ
ولو رَصَّعْنَ رأسي بتاجٍ من ذهب !

IV

كنتُ أُشاهد السّنيور ، أحياناً ، يطُوف في شوارع البلدة ، وعلى رأسه صينيّةُ البَقلاوة ، وهو يُنادي :

ــ البَقلاوة ! البَقلاوة !

في أحد الأيّام ، وبينما كان يقوم بجولته المُعتادة في أحد الأزقّة الضّيقة ، سَمع صهيلَ خيولٍ طليقةٍ تهدُر جامحةً ووَقْعُ خُطواتها يصمّ الآذان . فحاول أن يتحاشاها ويحتمي بمكانٍ ما ، ولكنّها كانت أسرعَ منه ، فصَدَمَتْه ، وداستْه بسَنابكها ، ومَضَتْ ، وانطرح على الأرض غائباً عن وعيه . فرآه السّائس ، الذي كان يجري وراء الخُيول ، ومال عليه يُريد مُساعدته . ولكنّ السّنيور لم يشأ أن يردّ عليه ، فملأ السّائس جُرابه بالبَقلاوة ، وتركه ومضى . ثم جاء إثنان من أهل الزُّقاق وحملاه إلى بيته .

وهٰكذا وقع ــ مَن كان سِنيورَ بلدتنا يوماً ــ طريحَ الفراش ، جريحاً ، مريضاً ، وبلا مُعين . وعاد السّنيور ، بعد مدّةٍ ، يظهر من جديد في شوارع البلدة ، مهموماً محزوناً ، وقد هجر صناعة البَقلاوة ، وراح يعمل حمّالاً في السّوق . وكان يقنَع ، ممّا تدرُّه عليه هٰذه المهنة ، بقَدَحٍ من العَرَق الصِّرف وبقطعةٍ من الجُبن ، ويمضي مُطأطئَ الرّأس . وأمسى

الضّيفَ ، المفروض ، على القهواتي ميناس ، والمُساعدَ المُرَدِّد لأُغانيه التُّركيّة .

منذ ذلك الحين تبدّلتْ نفسيّة السّنيور ، فأخذ يُفضّل العُزلة غارقاً في التّفكير . وكان أبي يستخدمه بأن يُرسل معه ، أحياناً ، بعض الأغراض إلى البيت . وجاءنا في يومٍ ، مُتنكّباً سلّةً ينوء بحَمْلها ، ويلهث ... فسألتُه :

ــ ماذا بك ، يا سنيور ؟ أنت تغيُّرت كثيراً . هل أنت في حاجةٍ إلى شيء ؟

أجاب :

ــ لا شيء ، يا ولدي زوهراب ! الأمر واضح . هَرَبْنا من مخالب بنات أمريكا الجنوبيّة ، فوقعنا تحت سنابك الخيل هنا .

قلت :

ــ لا عليك ، يا سنيور . لا يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وعلينا أن نحتمله صابرين ، وما بيدنا حيلة . هيّا آجلسْ ، وخذْ قَدَحاً من العَرَق حتى تستردّ أنفاسك .

ــ لا أذاق الله الغربةَ لأحد . (قال ذلك وهو يجلس مُتمهّلاً ، ثمّ أردف بحرارة) لقد بلغتُ ، في حينٍ مضى ، وَضْعاً حَسَناً جدّاً . ولكنْ يبدو أنّ كلّ شيء فارغ . مَن ليس له بيت ولا أُسرة ، ليس له شيء في هٰذه الدُّنيا . ليس إلى جانبي مَن يُعطيني كأس ماء . ألا تبّاً لهذه الحياة . ليتني مُتُّ وآنتهيت !

قلت :

ـــ لا تيأسْ هٰذا اليأسَ كلَّه ، يا سِنيور ! حاولْ أن تنظر إلى الدُّنيا بمنظار التَّفاؤل والأمل ، فتبتسم لك الحياة .

لم يُجبْني بشيء ، بل كَرَع قَدح العَرق دفعةً واحدة ، ومسح شفتيه بكُمّه ، وألقىٰ كلمة شُكر ، ومضىٰ خافضاً رأسه .

V

ومضت مدّةٌ ، آزداد فيها هُزال السّنيور ، وشحوبه . وكنت أراه ، في الأماسيّ ، في مقهىٰ ميناس مُنْزَوِياً في رُكنٍ أمام كأس العَرق وعُلبة من سمك السّردين ، قابعاً في الظّلام لا يُكلِّم أحداً ، وكأنه ينتظر ساعته الأخيرة .

ثمّ إنّ أيّاماً أُخرىٰ مرّت ، لاحظتُ فيها أنّ السّنيور غائب . فخطر لي أن يكون مريضاً . فذهبتُ مع الأصحاب لزيارته .

رأيناه وقد أقعده المرض ... وبدا لنا واضحاً أنّ أيّامه الأخيرة قد دنت .

آستطاع أن يتعرّف علينا ، وبصُعُوبة جلس في سريره ، وأخذ يُغمغم بكلامٍ لا يكاد يُسمع :

ـــ يا أولاد ! إيّاكم أن تتغرّبوا ! لا تتحمّسوا للهجرة . قد يكون يومُ الهجرة جميلاً ، ولكنه سريع الآنقضاء . آبقَوا هنا ، كَوِّنوا بيتاً ومَطْرحاً . أَحِبُّوا بعضَكم بعضاً . حافظوا على وطنكم .

ثمّ أطبق جفنيه ، وأسند رأسه الواني على الوِسادة ، فتحسبه وكأنه غاص في أعماق دُنياه الغامضة .

وبعد يومين إثنين ، قُرِع جرسُ الكنيسة ، ناعياً إلى أهل البلدة السِّنيور الطّيّب .

سِرْتُ وراء نعشه مُفكّراً .

وبعد أن أُهيل عليه التُّراب ، وآرتفعت الحجارة فوقه ، آستذكرتُ قولته التي بدت لي أشبهَ بمرثيةٍ ناعية :

بناتُ أمريكا الجنوبيّة
سمراواتٌ ، جذّاباتٌ وناعمات
كلُّهنّ سِحرٌ وجمالٌ ودلال
ولكنّي لن أعود إلى صُحبتهنّ
ولو رَصّعْنَ رأسي بتاجٍ من ذهب !

المدفون

كان ، مِن أصحاب النّوادر الطّريفة الذين يُجالسهم أبي ، المرحوم « نرسيسيان » ، الذي قصّ عليه يوماً هٰذه الحكاية ... قال :

في زمنٍ بعيد ، وفي قريةٍ ما من القُرىٰ الأرمنيّة ، مات رجلٌ ، وسُجّيَ في تابوتٍ ، حُمِل على الأعناق ، ومشىٰ النّاس وراءه في موكبٍ حافل إلى المقبرة .

وبعد الأنتهاء من الصّلَوات على القبر ، وقُبَيْلَ إنزال النّعْش في الحفرة ، سُمِعَتْ قرقعةٌ في داخل التّابوت وقرعٌ وكأنّ أبواب الجحيم تَئِزُّ وتَئِنّ ، ثمّ آرتفع غِطاء التّابوت ، وآستوىٰ الميتُ جالساً فيه ... فرِيعَ الحاضرون جميعاً من هٰذا المشهد الرّهيب ، على حينِ أخذ « المبعوثُ حيّاً » يُجيل بصره بين الحاضرين ، وهو يمسح العَرق المُتصبِّب من جبينه ووجهه ... ثمّ طلب ماءً يشربه وطعاماً يأكله !

وراح المُشيِّعون ، من رُعبهم وآرتياعهم ، يتدافعون ، ويدوس

بعضُهم بعضاً طالبين الهرب ، وتاركين « خادم الرَّبّ » بين حَدَّيْن ، مُضطَرباً مشدوهاً . فما كان من هٰذا إلّا أن أَطبق الكتابَ المُقدّس بين يديه ، ورسم على وجهه إشارة الصّليب ، ثم تشجّع ، وتَوَجَّه بخطابه إلى المبعوث ، يقول بصوتٍ مُرتعشٍ ولكنْ تتبدّىٰ فيه الشّجاعةُ والإيمان ، وجاء قوله أشبهَ بالشِّعر :

يا ولدي ! أنت ، الآنَ ، ميت !

وما عندنا هنا ماءٌ ولا طعام !

وليس لك ، بعدَ الآن ، أن تتنفّس أو تقوم !

ليس لك إلّا القبر المفتوح !!

ثمّ ٱلتفت إلى الحَفّارَيْن ، الضَّخمَيْن المُسلَّحَيْن بالمِعْوَل والرَّفْش ، وأمرهما بتصفية الحساب مع هٰذا المبعوث المُزَيَّف فوراً . فهجما على المبعوث مسعورَيْن ، ونزلا عليه ضرباً بالمِعول والرّفش ، وأعاداه إلى تابوته ، وأَحكما إغلاقه وأنزلاه في القبر .

ورسم الكاهن على وجهه وصدره إشارة الصليب عدّة مرات ، وتَفَوَّه بكلماتٍ غير مفهومة ردّدتْها شفتان مُرتعشتان ... ثم توجَّه إلى بيته وعلى وجهه ٱبتسامةٌ ملائكيّة !

*

هتف أبي ، وهو يستمع إلى هٰذه الحكاية ، مُتأثّراً :

ـــ يا لها من مَراسِمِ دَفْنٍ !

وآستنكر هٰذه الجريمة ، الفظيعة ، يرتكبها كاهنٌ وزبانيتُه بحقّ الميت المبعوث من جديد ، ممّا يتعارض مع أُسُس الإيمان ومفاهيم الإنسانيّة .

قال نرسيسيان مُوافقاً :

ـــ أجل ! هٰذا ما وقع في زمنٍ مضىٰ . إنّها لجريمةٌ أن يُحكَم على رجلٍ بالموت وقد مَنَّ الله عليه بالحياة وهو على حافّة قبره ، ويُدفَن حيّاً !

قال أبي ، وقد مضىٰ في تفكيره بعيداً :

ـــ قتلوا الرّجل ، ودفنوه جَوْعانَ عطشان ! ثم إنّهم لم ينتظروا أن يسألوه عن الأحوال في الحياة الآخرة ! لقد كانت فرصةً نادرةً وَهَبَها الله لهم ، ليستجوبوا الرَّجل ، ولكنّهم خلطوا الخير بالشرّ ، فقتلوه بجهالةٍ وغباء . ولو أنّه كانت في رأس الكاهن ذرّةٌ من عقل لأبقىٰ على حياة المبعوث للتّعرُّف على سرٍّ من أسرار الآخرة معرفةً قد تمنح الخاطئين أملاً .

قال نرسيسيان بنَزَقٍ واضح :

ـــ ولكن ... لا أحدَ يهتمّ بالآخرة ، يا جورج ! (والتمعتْ عيناه ، وأخذ يُغمغم بكلامٍ غير مفهوم ، ثمّ قال) ومع ذلك لو كانوا سألوه عن الحياة الآخرة ، لأجابهم بأنّها آمتدادُ نورٍ لا متناهٍ ، وسكونٌ أبديّ ، وسلامٌ خالد ... ولكنْ ، للأسف ، لا يوجد ماء ولا خبز .

المخنوقون

إنّهم خمسةُ رجال ، يرقُدون الآنَ في مقبرة قرادوران الصّغيرة . ذهبوا ، في يومٍ واحد ، ضحيةً لسوء الحظّ .

كان يوماً حزيناً ذاك الذي خيّم على القرية بأَسْرِها . أَسِنَ ماءُ البئر ... ففكّر الأب وأولاده الأربعة بنَزْح مائه بواسطة مُحرّكٍ يَضُخّ الماء إلى أعلى .

أَدْلُوا المُحرّكَ في البئر ، وشغّلوه . ولكنْ بدا أنّه بعد ما آستنفد هواءَ البئر توقّف عن العمل ، وقد آختلط دُخانُ الوقود المحروق برطوبة البئر ، فشكّل جوّاً سامّاً خانقاً تتعذّر معرفتُه على هٰذا الرّهْط من النّاس .

مال الآبن الأكبر برأسه فوق البئر بغيةَ معرفة سبب توقّف المُحرّك ، ولكنه ما كاد يفعل حتى دار رأسُه ، وفقد وعيَه ، وسقط في الجُبّ !

آستغرب الأب ذلك ، فمال هو الآخر ليعرف ما جرىٰ ، فكان أن لحق بآبنه ... وهٰكذا تَلاحَقَ الأبناء وأبوهم واحداً بعد الآخر ، وكلٌّ يريد

أن ينقذ مَن سبقه ، فسقطوا كلُّهم ، وغرقوا ، في بئرٍ لا يزيد عُمقُه على خمسة أمتار !

إنّي كلّما مررتُ بجانب المقبرة تذكَّرتُ الشُّجعان الخمسة ، الأوفياء ، الذين يرقُدون هنا ، بسبب جهلهم وسوء حظِّهم ، وتذكَّرتُ البئر الذي كان يومَ شُؤمٍ لهم في ذلك اليوم . ولكنّ ما يُحزّ في نفسي أنّ هٰؤلاء الخمسة كانوا صيّادي سمك ، مَهَرَةً ، ينزلون البحر الخِضَمَّ فلا يهابون فيه أمواجاً هائجةً ولا عُمقاً وإنْ كان سحيقاً ... ومع ذلك غرقوا في بئر ماء ، وسبحان الله على حكمته وتصريف الأقدار .

*

هٰذه الحادثة الحزينة تستدعي في خاطري حادثةً أُخرىٰ كادت تقضي على « الفيلسوف نِفدون » خَنْقاً ... في سَطْل !

وقع ذلك في يومٍ كانت المياه مقطوعةً في بيت نِفدون . وكان قد تَمَوَّن بالماء في سَطْلٍ آحتفظ به .

وعاد إلى البيت في ظهيرة ذلك اليوم القائظ مُرهَقاً ، محروراً ، فأراد أن يُرطِّب رأسه بقليلٍ من الماء . ماء الصّنبور مقطوع ، وماء السَّطل ثمين لا يَحْسُن هَدْره .

فرأىٰ أن يُغطِّس رأسه في السَّطل بدلاً من أن يصُبّ الماء صَبّاً فيذهب هَدَرا ... ألأنّه إذا غطّس فيه رأسه يستطيع أن يستعمل الماء ذاته في حاجةٍ أُخرىٰ ؟! هٰكذا فعل ...

ولكنّ رأسه عَلِق في السَّطل ! وأخذ يتخبّط ، ويصيح ، ورأسه في ماء السَّطل ، يكاد في ذلك يختنق !

ولولا حُسْنُ حظّه وإرادةُ الله ، لما سمعه جارٌ له فبادر إلى إنقاذه من الغرق في شبر ماء ، ولكان آسمُه آحتلّ الصّفحاتِ الأُولىٰ في الجرائد اليوميّة في العالم : **الفيلسوف نِفدون يغرق في شبر ماء !**

*

كانت قصّة المخنوقين الخمسة مُحزنةً جدًّا . وأمّا قصة نِفدون فكانت مجالَ تندُّرٍ عند أبي ، الذي كان يحلو له ، كلّما آلتقىٰ نِفدون في السُّوق ، أن يستوقفه مُلتمساً منه أن يُعيد سرد القصّة على مسامعه .

يقول له :

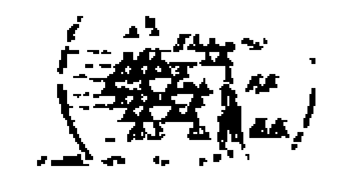
ــ نِفدون ! هل كان كُتِب عليك أن تقطع المُحيطات ، لتأتي إلى كَسَب وتموت فيها مُختنقاً في شبر ماء ؟!

ولا يبخل نِفدون بالرّدّ ... كان يُجيب ، في كلّ مرّة ، بلهجةٍ لا تخلو من جِدّ :

ــ أرأيتَ ، يا أخي جورج ! كدتُ أُزهِق روحي لحظةَ خطر لي أن أُرَطِّب رأسي بقليلٍ من الماء !

فيضحك أبي :

ــ ليس الذَّنب ذنبَك ، يا نِفدون ، بل هو ذَنب آنقطاع الماء . إنّ الماء إذا آنقطع ، فإمّا أن يموت المرء من العطش ، أو يختنق في سطلِ ماءٍ ، لتوفير عذاب الموتِ !



فيجيب نِفدون ، وهو يُمسِّد شعره :

ـــ ما كنت أعرف ، يا صديقي ، أنّ حجم السَّطل بقَدْر حجم رأسي ! فلمّا غمستُ رأسي فيه همّ بأن يبتلعني !

ثم يكفهرّ وجهه ، فجأةً ، ويرتسم الرُّعب فيه ، ويبدأ بسرد ما جرىٰ له من البداية ... ولا يفوته أن يقول مُتفلسِفاً :

ـــ نعم ، يا أخي جورج ! نحن نعم في خِضمٍّ بحار الحياة ، ونستمتع بها ، مُرْتَدين ثيابَنا أو عُراةً ... كذلك يعترينا المرض ، أو الإهمال ، أو تنتابنا الهُمُوم ، ونُرمىٰ في زوايا النّسيان ، أو نختنق في قطرة ماء !

حظ أبي

في يومٍ من أيّام العام ١٩٤٠ ، عزم أبي على السّفر إلى بيروت بصُحبةِ القَسّ « آسادور » راعي كنيسة الطّائفة الإنجيليّة في كَسَب ، وذلك قصد أن يزور قريباً له يعمل بجوار مطار خَلْدة ، ثم يقوم بزيارة أختي التي تعمل خيّاطة هناك ، وأخي الأكبر الذي يُتابع دراسته .

آستقلّ والقسّ سيارةَ هرانت إلى اللاذقية أوّلاً ، وفيها تَوَجّها إلى الباص الذي سيُقِلّهما إلى بيروت ، ولم تكن رحلات السّفر إلى لبنان مُنتظَمةً في ذلك الحين ، فقد كان الباص يتوقّف حيثما يحلو له ولا يُتابع سيره حتى يستوفي حاجته من الرُّكّاب . وهٰذا ما كان : فبعد أن آكتمل الرُّكابَ عدداً ، تحرّك وئيداً مثل شيخٍ هَرِم ، يتأفّف ، وينفث الدُّخان ، ويسعل في مسيره ، ويملأ الجوّ عُطاسا !

جلس أبي والقسّ مُتجاوِرَيْن ، مثل تلميذين مهذّبَيْن ، لا يتكلّمان إلّا يسيرا .

كان الباص يضمّ عشرين راكباً ، من الرّجال والنّساء ، إضافةً إلى أطفالٍ لم ينقطعوا عن البكاء طَوالَ الطّريق .

والباص يهدُر ، في مسيره ، ويُزمجر ، فكأنّه يحتجّ على هٰذه الرّحلة . ولكنّ صاحبه لم يأبه لاعتراضه وتابع قيادته بعناد . فلمّا استنفد الباص كلَّ وسيلةٍ للاحتجاج ، وعند مشارف طرابلس ، سُمِع وهو ينفخ نفخةً عظيمة ، ثم يزعق زعقةً مُخيفة ، ويتوقّف ... وارتفع الدُّخان ، ووقع الرُّكّاب في حيرةٍ من أمرهم ، وأسرعوا يُغادرون الباص مُتدافعين في هَلَع وفوضىٰ . ثمّ إنّ الباص خلا من ركّابه ، على عويل النّساء وصُراخ الأطفال وتدافُع الرّجال ، واشتعلتْ فيه النّار وسط هٰذه الفوضىٰ الرّهيبة !

وأمّا سائق الباص ، فقد تهالك على الأرض ، يلطُم رأسه بكفَّيْه ، ويصيح بحزنٍ أليم :

ــ خرب بيتي ، يا إخواني ! ضِعْتُ ، مُتُّ . أصبح كلُّ ما جنيتُه خلال السّنوات العشر رماداً . آه ، يا ربّي ، أيُّ ذنبٍ جنيتُ حتى رميتَني بهٰذا العِقاب ؟!

ثم جعل يُخاطب الرّكاب قائلاً :

ــ يا إخواني ويا أخواتي ! لم يعدْ في إمكاني أن أنقلكم إلى بيروت ، وقد أصبح الباص هيكلاً مُحترقاً . فتدبّروا أمركم ... وليس عندي ما أقوله غير هٰذا !

وتجمّع النّاس حول الباص ، مذهولين ، يتأسّفون على هٰذه الكارثة الفظيعة ، وهم عاجزون عن تقديم أيّة مُساعدة ، والباص أمامهم هيكلٌ بين رماد .

وقف أبي مع القسّ آسادور وسط المُتجمهرين ، وكأنّهما يَصْحُوان من حُلُمٍ كثيف ، يفرُكان أعينهما ، وكلٌّ منهما يحمل حقيبته الصّغيرة . وتلاقتْ أنظارهما ، فقال أبي للقسّ يقطع حبل الصّمت :

ــ اتبعْني ، يا محترم !

وشقّ طريقاً له بين المُتجمهرين ، وأسرع الخُطى مُبتعداً . أمّا القسّ الذي لم يفهمْ شيئاً ، ولم يعرفْ إلى أين المسير ، فقد قال مُتسائلاً :

ــ إلى أين تُسرع هٰكذا ، يا سيّد جورج ؟! انتظرْ قليلاً . دَعْنا نُفكّر في الحلّ .

فأجابه أبي :

ــ أيّ حلٍّ ، وأيُّ تفكير ؟! احمدِ الله أننا نَجَوْنا من الجحيم ، فلنُسرعِ الآنَ إلى النّعيم ! اتبعْني ، يا محترم ، ولا تتلكّأ .

فأوْسع خادمُ الرّبّ خطواته ، كي يلحق بأبي ، دون أن يفوته أن يُردِّد كلماتٍ وعظيّة :

ــ إنّه ليتعذّر علينا ، وإن سِرنا طول عمرنا على هٰذا النّحو ، يا سيّد جورج ، أن نبلغ النّعيم . إنّه للمؤمنين والصّالحين . أيُّ إنجيليٍّ أنت ! يُخيَّل إليّ أنّك لم تطّلعْ قطّ على مواعظنا (وتابع عِظَته وهو يتأثّر خطاه لاهثاً) لا تخدعْ نفسك بأنّك وشيك الوُصُول إلى النّعيم ، يا سيّد جورج !

فأجاب أبي :

ــ أنا مُقتنِع ، يا محترم ، بأنّ علينا أن نصل إلى النّعيم أحياء . إذ لا فائدة من وصولنا إليه هياكلَ عظميّةً لا يعرف سَدَنَتُه ما يفعلون بنا !

أُسقط في يد القسّ ، وآضطُرَّ إلى أن يعتصم بالصّمت ، بعد ما سمع من أجوبة أبي ، هٰذه التي أقنعتْه بعدم جدوىٰ الحوار معه !

*

وأخيراً ، بعد مسيرة مسافةٍ ما ، وصلا طرابلس منهوكَيْن وهما يلهثان . وآستقلّا منها سيارةً لتنقلهما إلى بيروت . وهناك ودّع أبي القسَّ في فِناء المرآب بكلماتٍ مُقتضبة ، وآستأجر سيارةً إلى طريق مطار خَلْدة ، حيث زار قريبَه ، وآستكمل لقاءه وإيّاه بنجاح ... ثمّ ودّعه ويَمَّم وجهَه شَطْرَ « حيّ الأشرفيّة » ، إلى حيث يُقيم ولداه ، أُختي وأخي .

أخذ يسير في طريقٍ عريض ، وهو يومئ بين اللحظة والأخرىٰ إلى ما يمرّ به من السّيارات رغبةً في أن تُقِلّه إحداها إلى مقصده . ولم يدَّخِرْ وُسْعاً في أن يومئ للسّيّارات الشّاحنة أيضاً . ولكنّ سيارةً واحدة ، لم تأبَهْ له ... وهو يُتابع السّير في طريقٍلا يعرفه ، ويبتعد أكثرَ فأكثر ، حتى تراءىٰ له لو يعود أدراجه إلى بيت قريبه في خَلدة . ولكنّه خجل من العودة ، وآثر مُتابعة السّير أملاً في أن تستجيب سيارةٌ لإيماءته ، وهو مُستعدٌّ لأن يدفع كلّ ما يَطلُب صاحبها من أجر ...

ثمّ إنّ الظّلام نزل على المدينة ، وأبي لا زال يومئ بيديه ، مُترنِّحاً مُضطّرباً . وتساءل لماذا لا تقف له سيارةٌ واحدة ، ليس من أجل أن تُقِلّه ، بل ليُتمتم له صاحبُها ببضع كلمات آعتذار ! ما هٰذه القسوة من بني البشر ! وهنا جالت في خاطره كلماتُ القسّ آسادور عن الجحيم والنّعيم ، وهو يُتابع الإيماء للسّيّارات ، ويُحدّث نفسه قائلاً : حقّاً ، ليس هنا جنّةٌ للأحياء !

وبينا هو مع هٰذه الخواطر ، توقّفتْ بقربه سيارةٌ ، أشْبَهَتْ شيطاناً بقَرْنَيْن ، أو نَمِراً بمخالب ، أو لنقلْ : ضبعاً بعينين تتّقدان ! رأىٰ سائقُها أبي واقفاً على جانب الطّريق ، رافعاً في الهواء يده ، فتوقّف هو بحذائه تماماً !

تمتم أبي بكلمات غير مفهومة آختلط فيها الفرح بالخوف ... ثمّ أنزل يده ، المُومِئة ، وأخذ يُفكّر .

وهٰهنا رأىٰ باب السّيّارة يُفتَح بعُنف ، ويخرج رجلٌ مُلثّم ، ويأمر أبي بجفاء :

ـــ آدخلْ ، آدخل ! هيّا أسرعْ !

وتحت وَطْأَة هٰذه اللهجة ، دخل أبي إلى السّيّارة وهو يُرَدِّد كلمة : « أشرفيّة » ! وعلى مقاعدها رأىٰ في آنتظاره وُجُوهاً عابسةً مُرْبَدَّة يتطاير منها الشَّرَر . وآنزوىٰ في الرُّكن الذي أَخْلَوْه له ، وهو ما يزال يَلُوك بلسانه كلمة أشرفيّة ... والسّيّارة تُسابق الرّيح ، بمخالبها ، وقُرونها ، وعينيها المُتَوَقّدتين ، مُهَدِّدةً كلَّ من يعترض طريقها بالهلاك المُحقّق .

لم ينتبهْ أبي إلى الوقت الذي مضىٰ عليه وهو في السّيّارة . ولكنه صحا من ذُهُوله عندما لاحظ أنّ بيروت قد غابت تماماً عن أنظاره ... وما عادت عينه تلمح بلدةً ، ولا قريةً ، ولا ضوءاً في الأرض ولا في السماء .

ومع خَفَقان قلبه المُضطّرب ، تجاسر وطرح سُؤالاً :

ـــ إلى أين أنتم مُسافرون ، يا شباب ؟!

ولكنّ أحداً منهم لم يتلطّفْ بالإجابة عن سُؤاله ، وبَدَوْا له تماثيلَ

قُدَّتْ من الحجر الأصَمّ ، كبيرةً ، مُتَسَمِّرةً ، لا تتنفّس ولا تنطِق . وليس ثمّة ما يُشير إلى الحياة ، داخلَ السّيّارة ، سوى مُحرّكها الذي يهدُر برتابةٍ ، وأتُون النّار المُندلع من مِصباحَيْها الأماميين !

تعاظم قلق أبي ، وآشتدّتْ مخاوفه ، والسّيّارة تشقّ لُجَجَ الظّلام الكثيفة بسرعةٍ جنونيّة . وما كان يَسَعُه أن يفعل شيئاً ، أو يأتي بأيّما حركة ، وبدا له أنّه وقع في فخٍّ مُحْكَم يُهدِّد مصيرَه وحياته ... فكان لا بدّ من أن يستسلم إلى قدره ، وهو يُردِّد في سرّه صلواتٍ يتعزّى بها .

*

بعد سُوَيْعات ، خالها أبي شهراً مديداً ، أخذت السّيّارة تُخفّف من سرعتها الجُنونيّة . ثمّ آنعطفتْ إلى طريقٍ وَعْرٍ مُحَجّر ، وهي تتمايل يميناً وشِمالاً ، سارت فيه سُوَيْعاتٍ خالها دهراً .

عند ذلك نَفِدَ صبرُ أبي ، فصاح :

ـــ إلى أين تَمْضُون بي ؟

وأيضاً صمتٌ مُطْبِق ، وظلامٌ دامس ، إلّا من شُعاعٍ خارق ، من عينين حمراوين ، في المُقدّمة ، تَشُعّان ، وتبعثان الرُّعب حتى في قلوب التّماثيل الصُّمّ القابعة في مقاعد السّيّارة حوله .

وتوقّفت السّيّارة ، أخيراً ، مُزْبِدةً مُرْعِدة ، أمام كوخٍ مُظلم يربُض في سفح الجبال العالية التي تبدو للنّاظر ، أولَ وَهْلةٍ ، أشبهَ بكَوْماتٍ من حجارة .

ما أشدَّ وحشةَ هٰذا المكان !

لم يستطعْ أبي ، وقد أرسل ناظره مُحاولاً آختراق الظّلام ، أن يتبيّن معالم المَوْقع . فلا قريةَ هنا ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً يُمكن التعرُّف عليه والآهتداء به إلى المكان . إنّه أشبهُ بحُجرةٍ صغيرة من حجرات جهنم .

وتبدأ فُصُول اللعبة حين نزل المُلثّمون من السّيّارة مُسرعين ، وقد آحتمل كلٌّ منهم على كتفه حِمْلاً ، يغيبون في الكوخ لحظةً ، ثمّ يعودون واحداً بعد آخر ، وقد بدا الآنهماك عليهم ، والشرُّ يرتسم على وجوههم المُكفهرّة الشّائهة ... وهٰكذا حتى تمّت « العمليّة » الغامضة ، وتلاشىٰ المُلثّمون ، السّتّة أو السّبعة ، فلم يبقَ هنا غير السّائق ... الذي بدا مُبتهجاً ، بعد نجاح العمليّة ، وحَمِد الله وهو وراء المقود ، ثم آلتفت إلى أبي يُخاطبه :

ــ الآن ، جاء دورك !

وشغّل السّيّارة ، وقادها بالآتجاه المُعاكس .

هنا سُمِع صوت صفير ، بدا أنّه مُتّفقٌ عليه ، وآلتمع نورٌ خافت من مكانٍ بعيدٍ وسط الظّلام الحالك ، مثل عينين حمراوين ذَكّرتا أبي بمثلهما أيّام الهجرة حين حاصرتْهم الضّباع .

ــ يبدو أنّ حظّك طيّب ، يا سيّد !

تلقّىٰ أبي هٰذه الكلماتِ من فم السّائق ، فخُيّل إليه أنّها آتيةٌ من السّماء ، من أفواه الملائكة الأكرمين ! فإذا هو ينتعش ، ويهتف غير مُصدِّق :

ــ حظّي طيّب ، تقول ؟!

ــ أجل .

يردّ السّائق بهٰذه الكلمة ، ويُطلق صيحة فرح !

ـــ أجلْ ، طيّب ، وطيّبٌ جداً ، لأننا لم نُصادف في طريقنا نَفَراً من رجال الشّرطة !

فسأل أبي :

ـــ والآن ، إلى أين تأخذني ؟

ـــ إلى حيث طلبتَ : بيروت ، الأشرفيّة .. أليس هٰذا هو العنوان ؟

فآضطّرب أبي لحظةً ، وقد ساد صمت ، قطعه بسؤالٍ منه للسّائق يريد أن يعرف جليّة الأمر :

ـــ وماذا كان يُمكن أن يحدث لو أنّكم صادفتم الشّرطة في الطّريق ؟!

فيُجيب السّائق بعَنْجَهِيّةِ مَن وَرِثَ ثروةً عظيمة :

ـــ ماذا يحدث ! كنّا نَلُوذ بالهرب ، تاركين كلَّ شيء ، ونلتجئ في مخابئنا !

ـــ وبعد ذلك ؟

ـــ بعد ذلك ... تكون أنت المسؤول عمّا في السّيّارة . ننجو نحن بأنفسنا ، وتدخل أنت السّجن تقضي فيه بقيّة عمرك أو تُلاقي حتفك !

قال ذلك هازئاً ، ثمّ آستغرق بالضّحك .

ويغرق أبي مُتفكّراً بالمصير الذي كان مُتوقّعاً أن يسقط فيه . ثمّ أخذ يُقلّب في خاطره عباراتٍ ، تشفي غليله ، من هٰذا المُتَغَطْرِس الذي آتّضح له أنه ليس إلّا زعيم عصابة مُهرّبين !

وإذ لاحت أنوار بيروت العاصمة ، ثمّ دخلوها ، ولم يبقَ إلّا قليلٌ حتى يَصِلوا إلى الأشرفيّة ، أنشأ أبي يقول للرّجل :

ــ اسمعْ ، يا صاحبي ! لو كانت الشّرطة استوقفتْنا ، ولُذْتُم أنتم بالفرار كما تقول ، لكتبتُم على أنفسكم أنّكم شبّانٌ طائشون وجُبَناء ! على حين تقوم السُّلطة بتكريمي أنا ، لشجاعتي ، خُصوصاً عندما يستمعون إلى روايتي ، ويتبيّنون أنّي سوريٌّ جئتُ اليوم إلى بيروت زائراً ، إذ ذاك يستضيفونني مُعزّزاً ، ويوصلونني مُكرّماً إلى الأشرفيّة حيث يُقيم أبنائي !

دود القز

أذكُر جيّداً أنّ أهل بلدتنا كانوا ، بين العامَيْن ٥٠ – ١٩٦٠ ، مُنكَبّين على تربية دود القزّ للحُصُول على شَرانقه . ولا أنسىٰ البُستان المُواجِه لفُندقنا الذي كان عامراً بأشجار التّوت والتّين . كذلك كانت المُتاجرة ببيُوض دود القزّ مُزدهرة ، يُمارسها كثيرٌ من النّاس ، منهم تاجرٌ – ما أزال أذكره – أصلُه من « جبل موسىٰ » وهو حَلَبيّ ، عرفه أهل كَسَب بآسم « يورغي » ، كان يزور البلدة في فصل الرّبيع وينزل ضيفاً في فُندقنا ، يحمل معه عُلَباً تحتوي على بيُوض دود القزّ ، ويبقىٰ عندنا أيّاما .

وقد دخلتْ صناعةُ تربية دود القزّ إلى بلدتنا – إضافةً إلى ما يُمارسه أهلها من أعمالٍ ومِهَن – بفضل السّيّد يورغي ، لتكون مَوردَ دخلٍ ثالثٍ ، أو رابعٍ ، لأهل كَسَب عامّةً وللمُهتمّين بهٰذه الصّناعة بشكلٍ خاصّ .

وما أذكره أيضاً أنّ « الجبل – مُوسَويّ » هٰذا كان يُناهز الخمسين من عمره في ذلك الحين ، قد وَخط الشّيب رأسه ، وآتّسم بإفراطه في

نظافة ملبسه ، وحِرْصه على حلاقة ذقنه كلّ صباح ، وكان نحيلَ الجسم ، عصبيَّ المِزاج ، دقيقاً في تعامله مع النّاس .

كان يُناديني من أعلى الشُّرفة :

ـــ زوهراب ، ابنيّ !

فأُسرع إليه ، تاركاً المطبخ ، لأُلبّي طلبه ، الذي كان يتعلّق غالباً بتناوُله الطّعام ، فهو يُريد ، مثلاً ، صحناً ، سكيناً ، شوكةً ، ملعقةً ، صابونة ، منشفة ، وإبريقاً من الماء الصّافي ... وطلباته هٰذه هي هيِ لا تكاد تتغيّر . وكان يحرص على أن يتناول طعامه وحدَه ، تُرافقه صناديقه المملوءة ببُيوض دود القزّ ، وبجوارها المُعلَّبات الفاخرة ، مثل سمك الطّون ، الذي كان يكتفي بعُلبةٍ منه يعتصر فوقه ليمونةً ، لوجبة الغداء .

كان « الجبل - موسَويّ » دقيقاً في مواعيده . يستيقظ صباحاً في موعد مُعيّن لا يَحيد عنه . وبعد أن يتناول فَطورَه يحمل عُلَبَ البيُوض في حقيبةٍ صغيرة ، ويخرج ليُوَزِّعها على المُزارعين . ويتّفق أن يحضر إليه بعضُهم ، أحياناً ، لاختيار نصيبهم من هٰذه البُيوض ، التي يعتقدون أنّها الأفضل .

كان السّيّد يورغي يُشيد ، في كلّ مناسبةٍ ، بما يأتينا به من هٰذه البُيوض بحماسةٍ ظاهرة ، وكان يتحدّث أحياناً ، بما يُشبه مُحاضراتٍ قصيرةً ، أمام الفلاّحين المُتجمّعين في فِناء الفندق ، شارحاً السّبيل الأفضل لتربية هٰذا الحشرة النّافعة ، مُبيّناً الجديد في أُصول تربيتها .

وكان ينزل ، بعد العَشاء ، أحياناً ، إلى بيتنا ، ليقضي سهرةً وُدّيّةً مع

سرتنا . وكان ما يجري بينه وبين أبي من أحاديث ، شائقٌ لذيذ ، وكثيراً
ا آستغرق أبي في الضّحك لطُرفةٍ رواها الضّيف .

كان وجوده بيننا مُمتعاً . فهو يحكي لنا عن مسقط رأسه
جبل موسىٰ » ، وعن طفولته فيه وذكريات شبابه ، ويتباهىٰ ببُطولات
هل ذلك الجبل في مُقاومتهم للحُكم التُّركي وفظائعه ... ثمّ ينتقل في
حديثه إلى أرمن حلب ، واصفاً حياتهم ونشاطاتهم المُختلفة ، وعن دُكانه
نناك المُتخصّصة في خياطة القمصان ... وينتهي إلى مجال صناعة
لحرير ، وتربية دود القَزّ التي يستعذب الحديث عنها فيُفيض
يسترسل ، في كلّ ليلةٍ تقريباً ، حتى حفظنا أحاديثه عن ظَهْرِ قلب .

*

ذات يوم ، تجمّع الفلاّحون حول طاولةٍ في فِناء الفندق . وراح
لجبل ـ موسوي يُبيّن ، بحُضور أبي ، مَحاسن الحرير وتربية دوده والعناية
ه ، ويُحبّب لهم الآستزادة منه ... ثمّ سألهم عن رأيهم في هٰذه الصّناعة
لتي أُدخلتْ حديثاً إلى كَسَب ، ويستوضحهم عمّا قد يبدو لهم غامضاً
ي الموضوع ، مُبدياً آستعداده التّامّ لتقديم كلّ عونٍ ومَشورة للعاملين في
هٰذا المِضمار .

هنا ، نهض رجلٌ طويل القامة ، طليق اللسان ، من أهل البلدة ،
يبدأ الكلام بآسم المُجتمعين ، قال :

ـــ نحن مُمتنّون جدّاً من صناعتنا الجديدة هٰذه ، وشاكرون لك ،
يا سيّد جورج ، أنك في طليعة الذين جاؤونا بها لتزيد في دَخْلنا . وقد
منحتْنا هٰذه الصّناعة بَرَكةً حَلّتْ في كلّ بيت ، والعملُ فيها مُمتعٌ

وميسور ، ونحن مُتحمّسون لها ، ونتمنّىٰ أن تدوم حماستنا لتعود بالرّبح الوفير على أهل كَسَب ، وعلى وطننا العزيز سورية .

حرّكتْ هٰه الكلماتُ الجميلة مشاعرَ الجبل – موسوي ، فنهض يردّ على هٰذا الإطراء بعباراتِ شُكرٍ « على الكلمة ، اللطيفة والحارّة » – حسب تعبيره – وأضاف إنّه ، بإذن الله وإرادته ، سيُقدّم كلّ ما في وُسْعه لصالح هٰذا المشروع الخيّر ، في كلّ مكان ، وأكدّ أنّ الإنسان لا يجيء إلى الدُّنيا لهَدْر وقته عبثاً ، بل لخدمة البشريّة فيما يعود على الجميع باليُمن والبركة .

ثمّ إنّ المُجتمعين لَهَجُوا ، مع مَن آنضمّ إليهم ، بالشُّكر ثانيةً للجبل – موسوي .

ولكنْ ... قبل أن يَنْفَضّ هٰذا الآجتماع ، تراءىٰ لأبي ، بما فُطِر عليه من مَرَح ، أن يقف ويتّجه بأنظاره إلى يورغي ، ويقول وهو يتبسّم ، إنّه يرىٰ في حياة دودة القزّ حياةً غريبةً ، منعزلة ... يقول :

– فأنت تعتني بها أياماً طويلة ، وتُطعمها ، ثمّ تراها تنسُج قبرَها حولها ، مُعتزلةً العالَم ... فأنت لا تتذوّقها ، ولا تشمُّها ، ولا تُداعبُها ، ولا تجد عندها الحُبّ ، ولا تجرؤ على شقّ قلبها وآمتلاكه ، خوفاً من أن تلسعك !

وأضاف :

– إنّ كثيراً من أعمالنا يتعارض مع هٰذه الصّناعة . فتربية الأبقار ، مثلاً ، تُعطينا الحليب اللذيذ والجُبن واللحم ... وزراعةُ التّبغ تَدُرُّ علينا مالاً وفيراً ، وتحملنا على أجنحة الخيال إلى الأحلام العذبة ... ونستفيد ،

من التّين والتّوت والعنب ، بما يُمكن تجفيفُه ، إضافةً إلى الخمر الطّيّب والعصير الذي يفتح الشّهيّة ... ثمّ إنّ مهنتي في الفندق تُنتج الأطعمة اللذيذة ، وتخلق الجوّ المرح والحياة الأجتماعيّة ، وتعْقِد الصّداقاتِ المتينة ، وتُوَفّر السُّوَيْعاتِ السّعيدة، وتُذْكي الذّكرياتِ الحلوة ... أمّا عملي في تربية النّحل ، فيُنتج العسل الشّهيّ زكيّ الرّائحة ، الذي تُطيل مادّتُه الشّافية الأعمارَ وتَشْفي العِلَل ... والدّواجنُ تُعطيني البيض ، ويفيد بُرازها في تسميد الأرض ، فهو للمزروعات كالدّم في القلب الذي يخفق !!

وأضاف ، مُنتقداً :

ــ لكنّ تربية دود القزّ ، هٰذه التي طالما روّجتَ لها ، فإنّها تبدو غيرَ معقولة . صحيح نحن نكسب منها مالاً ، ولكنها صناعةٌ أشبهُ بصحراء لا واحة فيها !!

هٰهنا رفع الجبل ــ موسوي صوته صائحاً في أبي ، مُغتاظاً ، بعد أن أستمع إلى حَمْلته على تربية دود القزّ ، قال :

ــ أيُّ طَنينٍ هٰذا الذي صدر منك ، يا صاح ! كأني بك تُريد أن تدُسّ أنفك في كلّ شيء . أفرغتَ ما في فمك لتُؤكّد أنك ثرثار (وأضاف ، وهو يُرسل إلى أبي نظراتٍ دفاعيّة) تُرى ، هل يمضغ العاملون في معامل المدينة الحديدَ ، أو الصُّوف ، أو القطن الذي يغزلونه ، أو هل يتذوّقون طعمَ الذّهب ؟.. إنّهم لا يفعلون ذلك ، ويتقاضَوْن المالَ بديلاً عنه ... وإذا ما توافر المالُ هان كلُّ شيء ، طعمُه ومذاقه !

فأجاب أبي ، وهو يتلعثم :

ــ أجل ، يا سيّد يورغي ! بالمال تستطيع ان تحصل على لبن النّمر . لكنْ أرجو ألّا تفهم كلامي فهماً خاطئا . إنّ ما أعنيه أنّ المرء حين يستمتع بنتاجه ينسى تعبَه ، ويُحسّ راحةً تتنزّل على قلبه ، فيَغْفو سعيداً ويستيقظ سعيداً .

فصاح الجبل – موسوي ، بعصبيّةٍ ظاهرة :

ــ أيُّ سعادةٍ وراحةٍ وخلاص ، تقول ؟ أم تُراك بدأتَ تُلقي موعظةً دينيّة أيضاً ، يا سيّد جورج ؟! المال يُعوِّض كلّ ما ذكرتَ ، فهو يُضفي السّعادةَ على النّفس ، وكفى !

فعاجله أبي :

ــ وهل كان الأقدمون محرومين من الرّاحة النفسيّة قبل آختراع المال وآكتشافه ؟!

فأكّد الجبل – موسوي :

ــ تغلغلك في أعماق الماضي غباءٌ منك ، يا صديقي جورج . عليك ، قبل كلّ شيء ، أن تتصوّر العصرَ الذي فيه نعيش . نحن في عصرِ المال ، والمال فقط . إنّهم لا يردّون عليك التّحيّة إذا كان جيبك خاوياً .

ثمّ ما يلبث أن يهدأ ، وترتسم على وجهه بسمةٌ راضية ، وينظر بعينَي الرّجل الخبير إلى الفلّاحين ، ويبدأ بالتّفَلْسُف :

ــ أجل ، يا أصحابي ! قبل ختام هٰذا اللقاء المُمتع ، أرى أنّ من واجبي أن أقول إنّ تربية دود القزّ هي الصّورة الحقيقيّة لمضمون حياتنا . تصوّروا مرّةً : أليس كلُّ واحدٍ منّا شَرْنقة ؟ ألم ينسج كلٌّ منّا حوله

السّتار الذي يحميه ويعزله ، ويحمله معه أخيراً إلى القبر مثل تابوت ؟ مَن ذا الذي يستطيع أن يفتحَه ، ويغوصَ إلى أعماقِ أمر الله وأسراره ؟ أجل ، نحن شَرانقُ نُسِجتْ بألف خيطٍ وخيط . نتشكّل بَشَراً ، ولكنّا نمضي أشبهَ بدُودةٍ ونختفي ، ولا نترك سوىٰ الذّكرىٰ الحميدة ، التي تلتمع في كلّ مكان مثل خيط الذّهب ، أو خيط الحرير .

العم ميناس

I

كان « العمّ ميناس القهواتي » ، آخرَ مَن بقي مِن شُيُوخ بلدتنا على قيد الحياة ، في سنوات السّتّينات .

رجلاً عملاقاً كان ، وذا سروالٍ أسودَ فضفاض لم يكدْ يُبدِّله ، ولحيةٍ سوداء كَثّةٍ مُشَعَّثة . وكان وديعاً ، راجحَ العقل ، فنّاناً ، وَطنيّاً ، يُضمِر الحُبّ والوُدّ لأهل كَسَب جميعاً غيرَ مُفرِّقٍ بين طائفةٍ من النّاس وأُخرىٰ .

كنتُ ، في ذلك الحين ، في العشرين من عمري ، قد أنْهَيْتُ مرحلة الدّراسة الابتدائيّة ، ونزلتُ إلى العمل مع أبي فأصبحت ساعدَه الأيمن ، في خدمة الفندق والعناية بالبستان .

وكنتُ أهوىٰ ، دونَ أن أُعلن عن ذلك ، الغِناءَ والشِّعر والثّقافة . ولم أكنْ أُحبّ التّسكُّع في الطُّرقات وارتيادَ المقاهي ، كما كنت أتجنّب التّدخين وشُرْب الخمرة ولُعب المَيْسر ، هٰذه العادات السَّيِّئة التي تضرّ

بالصّحّة ... ومع ذلك أتذكّر مقهىٰ العمّ ميناس الكبير ، الذي يكتظّ برُوّاده أحياناً حتى ليُشبه قفصاً قد آحتوىٰ بَشَرا !

ولقد كان يتّفق لي أن أدلِف إلى المقهىٰ في بعض الأُمسيات وأنا عائدٌ من السُّوق إلى البيت ، قصدَ أن أُمتّع ناظريّ برؤية آلته الموسيقيّة ، المؤلّفة من نوعٍ من الخَشَب قد شُدَّتْ عليه أوتارٌ ثلاثة ، وأسمعه يعزِف عليها ويُغنّي أغانيَ حزينـةً ، يُظَنّ أنّهـا من نَظْمه وتلحينه .

II

ذات مساء ، مررتُ بالمقهىٰ ، فرأيتُ العمّ ميناس ، بضخامته ، جالساً على كُرسيّه المُعتاد ، يعزِف ويُغنّي أغنيةً من أغانيه الحزينة . حيَّيْتُه وجلستُ بجانبه ، أُصغي إلى غنائه بآهتمام بالغ . كان العمّ ميناس يُحبّني ويَسُرّه أن أُجالسه ، وكان أبي من أصحابه وزُبُنِهِ المُداومين . وكان اللحن التركيّ ، الذي يُغنّيه ، قديماً حتى إنّه لا يُمكن معرفةُ المُلَحِّن ولا ناظمُ الكلمات .

رأيتُه ، وهو يُغنّي في ذلك المساء بآنسجام ، وقد هَيْمَن عليه الحزن ، والدُّموع تترقرق في عينيه ... ثمّ ما لبث أن آنفرطتْ منهما دمعاتٌ ، آنحدرتْ وتغلغلتْ في لحيته الكَثّة ... وبعدئذٍ ران صمتٌ ، مثلُ صمت القبور ، خيّم على كلّ ما حولَنا . وأمّا القهواتي فقد شدّ آلته على ركبتيه ، وغرق في تفكيرٍ عميق ، فبدا وكأنّه يَعبُر قناطرَ أحلامٍ شفّافةٍ بعيدة .

ولم يَسَعْني أن أقف مكتوفَ اليدين حيالَ تأثُّره الشّديد ، فقلت أُواسيه مُحاولاً التّعرُّف على ما يشغَل باله :

ـــ عم ميناس ! أنا أيضاً أُحبّ العَزْف والغناء . إنّ الدُّنيا ، دونَ

هٰذا الفنّ ، صحراء قاحلة . والموسيقا هي الدواء الوحيد لمن ينشُد للقُلُوب الطُّمأنينة والسَّكينة .

أجابني ، وهو يُمسِّد لحيته وكأنّه آستيقظ من حُلُمٍ بعيد :

ــ إنّها كذلك ، يا بُنيّ . ولكنْ لا تنسَ أنّ الموسيقا قد تقلِب المَوازين أحياناً ، فتُسبِّب الاَضطراب والقلق في النُّفوس .

ورَشَف رشفةً من فنجان القهوة أمامه ، وقد آطمأنّت نفسه قليلاً ، وأخذ آلته ، وبدا ينقُر عليها لحناً بدا أقربَ إلى العُنف والثّورة منه إلى الحزن والكآبة .

III

كان العمّ ميناس مَرِحاً مُحِبّاً للمِزاح ، ولكنّه مِزاح مُفْعَمٌ بالحكمة . ومع أنّه قليلُ الكلام ، فإنّ أقواله تأتي بليغةً ، تُساعده في ذلك عينان سوداوان ، واسعتان ، تُشعّان بالمعرفة .

كنت أرىٰ أبي ، أحياناً ، في المقهىٰ ، بين نَفَرٍ يتحلّقون مدفأةَ حطبٍ كبيرة ، يحتلّ الحدّاد « الحاجي أرتين » بينهم مكانةً خاصّة . ذلك أنّه ، بعد أن يفرغ من سرد الأخبار اليوميّة العامّة ، يسترسل في الحديث عن مُغامراته في الصّيد ، وكأنّه يُريدها أن تبقىٰ خالدةً في ذاكرة الجماعة !

وتَرِفّ ، في أثناء ذلك ، عينا العمّ ميناس ، مُنطبقةً ، مُنفتحةً ، كما لو أنّ النُّعاس يُغالِبهما !

وينهض سركيس بولاديان فيدُسّ قطعةً من الحطب في جوف المدفأة ، ثمّ يُرسل نظرةَ مُنتصرٍ إلى عينَي القهواتي النّاعستين .

ثمّ إنّ بولاديان ومحشيكيان يستعدّان للعبة « بلوت » ، ويتولّى دورَ الحاسب لهما « الكوميسير » دونما ورقةٍ او قلم ، فذهنه مثل الإسفنج ، يمتصّ ويهضُم كلَّ ما يُقال ويحفظ في ذاكرته كلّ ما يسمع من أحداثٍ بتواريخها الدّقيقة ، ويستحضر أسماءً صَدِئةً قد عَفّى عليها النّسيان فهي لا تخطر في بال أحد غيره ، مُلقياً الضّوء السّاطع على مشاعرَ يلفّها الغُموض !

ومع ذلك ، فإنّ الأنظار تتّجه ، كلّما حَزَب الأمرُ ، إلى العمّ ميناس ، الفِدائيّ العارف ، فيُعطي رأيه الحاسم بكلمات موجزات .

وفي الرُّكن المُعْتِم ، هناك ، يجلس السّنيور « كالاك » ، وأمامه قَدَحُ العَرَق وصحن السّردين ، يجترّ ذكرياته البرّاقة أيّام كان في أمريكا الجنوبيّة .

IV

ويحكي لنا أبي قصصاً وسّوالفَ عن العمّ ميناس ، مُفعمةً بالتّضحية والنّزعةَ الرُّوحيّة السّامية ... يقول :

في عصر يوم شَتَوِيّ غائم ، جلس العمّ ميناس مُحتضناً ربابته ، ومعه الحاجي أرتين ، يتهيّأ للعزف في ليلته .

فجأةً ، سُمِع وَقْعُ أقدامٍ ثقيلة تدخل المقهى ، وظَهَرَ في الباب رجلٌ غريب ، ألقى التّحيّة ، ثمّ ارتمى بجسده ـ الذي يُشبه الدُّبّ ـ في أوّل كرسيّ صادفه .

نَحّى العمّ ميناس الرّبابةَ جانباً ، وردّ على الرّجل تحيّته ، ثمّ أخذ يتفحّصه باهتمام ويقول :

ـــ ما تشرب ، يا صاحبي : قهوة ؟ أم شاي ؟

تظاهر الغريب بأنّه لم يسمع سُؤال القهواتي . قال مُعرِّفاً بشخصه :

ـــ أنا من نواحي « بازكا » ، يا عمّ ميناس . كُرديّ الأصل ، لكنّي أعيش مع الأتراك ، الآنَ ، فأصبحتُ كُردياً ـــ تركيّاً معاً . أتعامل مع بيت « مَقدسي » . آسمي « حِكْمَت » . سمعتُ أنّك موسيقيّ بارع ، تنظم الشّعر وتُلحِّن « الشرقيّات » . ذاع صيتُك حتى وصل إلينا . النّاس يتحدّثون عنك بالخير ويمتدحونك ، ويقولون إنّ في ربابتك ، ذاتِ الأوتار الثّلاثة ، صوتاً حَنوناً ، حزيناً ومُفرِحاً في آن ، ويُؤكّدون أنّ عزف العمّ ميناس يُليِّن القُلوب القاسية ويملؤها سعادةً . قلت في نفسي : آذهبْ ، يا حكمت ، قبل عودتك للبيت ، إلى مقهىٰ العمّ ميناس ، وآستمع إلى بعض الشّرقيّات ، وخُذْ لك أقداحاً من العَرَق ، وأرِحْ أعصابك ، وبعدئذٍ تابعْ دربك ...

ـــ قد تكون أحسنتَ صُنعاً ، يا رجل !

ثمّ أطلق العمّ ميناس ضحكةً باهتة صفراء ، متمنّياً لو أنّ الرّجل يستعجل في مُغادرة المكان ، إذ لم يَرُقْ له ...

وأضاف مُستدركاً :

ـــ لكنّك ، يا صاحبي ، أسأتَ فهم ما سمعتَ عنّي ، فلا أنا بالفنّان ، ولا بالعازف البارع الذي ظننتَ . أنا لستُ إلّا جَبَليّاً ، أنسُج من خيالي ، وأنا في رُكني هٰذا ، ما تُسعفني به قريحتي ، مُتخفّفاً من أعباء الحياة ، فأنتقم بذلك لنفسي منها ! كما أنّ الذين يستمعون إليّ هم قومٌ بُسَطاء ، مثلي ... إنّي أعزف وأُغنّي لنفسي ، فمَن أعجبه منهم ذلك منّي فأهلاً به ، ومَن لم يعجبْه فمع السّلامة !

هتف حكمت مُؤيِّداً ما قال :

ــ حسن جداً ، يا عمّ ميناس . لا تظنَّنَّ أنّي رجل مُتبجِّج . فأنا ، أيضاً ، فلّاحٌ مثلك ، « كلُّنا في الهوىٰ سوا » ! والآن ، هاتِ لي العرق ، يا عمّ ميناس ، ثمّ أسمِعْني ما عندك . ولا ترُدَّني خائباً ... فنحن ، آخرَ الأمر ، « أبناء عمومة » ، وإنّ لنا قُلوباً تشعر بالمودّة !

قال العمّ ميناس ، وهو ينهض :

ــ كلّنا نحمل وراء ضُلوعنا قُلوباً . لكنّ كثيراً من النّاس ما آن لهم أن يعرفوا أنّ لهم قلوباً !

وتوجّه نحو المطبخ ... ثمّ عاد بزجاجة ، ليس فيها مِن العَرَق إلّا ما يملأ قدحين إثنين ، ووضعها أمام الكُرديّ ــ التُّركيّ :

ــ آشربْ ، يا آبنَ عمّي ، بالهَنا والشِّفا .

وعاد إلى كرسيّه .

وتناول ربابته ، وآحتضنها بحنان . ورَفّتْ عيناه هُنيهةً ... قبل أن يغيب في عالمه الشّفاف حتى الأعماق .

وكان ما قدّمه ، في تلك الأمسية مُؤثِّراً جدّاً ، حتى إنّ العصافير ، التي كانت قد بَنَتْ أعشاشها عند سفح الجبل خلف المقهىٰ ، توافدتْ ، تُزقزِق وتُرفرِف بأجنحتها وكأنّها تُريد أن تُمسّي بالخير على العمّ ميناس ، قبل أن تأوي إلى أعشاشها ناعمةً بِهَدْهداته الحنونة .

وفاض المقهىٰ بالحيويّة والنّشاط .

فالحاجي أرتين أخذ يلفّ سيكارةً من التّبغ الثّقيل ، ثمّ أشعلها ،

ليسحب دخانها بشراهةٍ إلى صميم رئتيه . ودخل الكوميسير ، وكرم ...
وأخيراً جاء الشّريد التّائه ، السّنيور ، يحمل في يده علبة سردين ، وتوجّه باسماً إلى رُكنه المُعتِم ، بعد أن وضع في جيب العمّ ميناس نصفَ ما كسبه في يومه .

V

بعد ما آنسجم العمّ ميناس في أُغنيته الشّرقيّة ، تَحَشْرَج صوتُه فجأةً ، وبدا كمَن يختنق ... ثمّ شيئاً فشيئاً أخذ يعود إلى طبيعته الأُولىٰ ، مُترنّماً بأُغنيةٍ شرقيّة أُخرىٰ تَرَدَّد صداها في أرجاء المقهىٰ الواسع .

ذهبتَ لحربٍ ضَرُوسٍ ، بعيدا
وقعتَ بدربٍ سعيرٍ ، شهيدا
فيحمل روحَك ملكٌ حنونٌ
فطوبىٰ لمثلك يحمي الحُدودا !

أفرغ الغريب ثُمالة قدح العرق في جوفه ، ثمّ نهض وصاح مُنتشياً بصوتٍ شديد الحماسة :

ــ عشتَ ، يا عمّ ميناس ، عشت ! أُفْديك بروحي . ما كنتُ أتصوّر أنّك فنّانٌ عبقريّ إلى هٰذا الحدّ ! طُوبىٰ لك ، وألف طوبىٰ . لقد أثلجتَ صدري ، وصَفّيتَ ذهني ، وخدّرتَ أعصابي بالذّكريات البعيدة . وحَقٌّ ما يُقال : الدّنيا صحراء قاحلة قبيحة دونَ عزفٍ وغناء !

وملأ الكأس ثانيةً ، وأخذ جُرعةً ، وآبتسم ، ثمّ قال في لهجةٍ خطابيّة :

ــ اللعنة على الذين أرادوا إبادة شعبٍ فنّان ، مُسالم ، مثلكم ... اللعنة على النُّفوس المُتسلِّطة الخبيثة التي هدمتْ الخير وهدَّتْ بُنيان السَّلام .

أعلن العمّ ميناس بزَهْوٍ وفخارٍ :

ــ كثيرون هم الذين هَمُّوا بإبادتنا ، يا صاحبي ، ولم يتمكَّنوا ، لا ولن يتمكنّوا . نحن باقون ، وسوف نبقى ما دامت الدُّنيا باقيّةً ، وفنُّ الغناء قائماً . نحن باقون ما دُمنا قادرين على الأبتكار والأزدهار .

ومرّت لحظاتُ صمت ، غاب فيها القهواتي مع أفكاره هازّاً رأسه ، ثم سدَّد نظره إلى الغريب ، وقال :

ــ لا تنسَ أنّكم ، أنتم الأكراد أيضاً ، أردتم إبادتنا يوماً ، فقتّلتم منّا خَلْقاً كثيراً وعذّبتمونا طويلاً ... وما كان لكم أن تُصيخوا إلى أصواتنا ونداءاتنا ... وقد جاء دوركم لتُعانوا ، وتندموا ، ولكن بعد فوات الأوان !

أجاب الكردي :

ــ هٰذا صحيح .

قال ذلك دونَ وَعْي ، وقد رَنَّقَتْ في خياله سَحابةٌ من الحزن والتأثّر . ثمّ أخذ من قَدحه جُرعةً كبيرة ونظر نظرةً عشواء ، وقال :

ــ لكنْ ما ذنب الشّعب ، يا عمّ ميناس ؟ وأخُصّ الفئاتِ غيرَ المُتعلّمة التي آعتادت أن تُنفِّذ الأوامر السّاميّة دونما تردُّد !

أجاب القهواتي ، مُتململاً ، وهو يهرُش لحيته الكَثّة :

ــ هٰذا صحيح جداً ! الأوامر كلُّها تصدر عن الكبار الكبار ،

الذين يستعبدون الصّغار ، ثمّ يجعلونهم في أيديهم مناجلَ يحصُدون بها الأرواح ، وتُهْرَق دماءُ الأبرياء ... آه من الأمر الظّالم ! تبّاً لمن ختمك !

وبدا أنّ القهواتي قد آكتفىٰ بما قال . فمسح عينيه الدّامعتين ، وأرسل نظره إلى السّقف ، ثمّ آنعطف على ربابته فضمّها إلى صدره ، وأخذ يُغنّي الشّرقيّة الثّالثة ، التي أنهاها بهٰذه الكلمات :

دُنيا الظّلام ، عن المظالم لا تحيدْ
تبّتْ أيادٍ ذمَّها الرّبُّ الحميدْ !
قد ساغت الأدماء دوماً ، والخنىٰ
أنّىٰ لقلبي الغضّ مِن حَمْلِ المزيدْ ؟!

هٰهنا توقّف بولاديان ومحشيكيان عن اللّعِب ، يُصغيان إلى الغناء البديع . وشرع صانع السّلاح ، الحجّي أرتين ، يلفّ سيكارةً ثانية ، وأخذ نفَساً ومَجّه من منخريه ، مُصَعِّداً دُخانه في فضاء المقهىٰ فبدا سحابةً سوداء قد تجمعتْ عند السّقف .

أمّا كالاك ، فقد آنتفخ مثلَ مَلِكٍ كَسِبَ حرباً ، فراح ينسُج بسعادةٍ أحلامَ الآستعداد لمعركةٍ جديدة .

أمّا الكوميسير ، وكرم ، الواقعان تحت وطأة خواطرَ عابرةٍ ، فقد بدأا ينتظران الفرج القادم من الخارج ، وقد تأخّر .

والسّنيور غيرُ عابئٍ بكلّ ما يجري حوله . إنّه في رُكنه أمام صحنِ سردينه وكأس عرقه ، لا يشتري الدُّنيا كلّها بقشرة بَصَلَة ، وبسمةٌ سعيدةٌ ترِفّ على شفتيه !

VI

فلمّا أفرغ الغريب آخرَ قطرةٍ من العَرَق في جوفه ، وقف صائحاً :

ــ عظيم ، عظيم ! وكيف لا يذوب قلبي طرباً ؟! (وآستدرك) ولكنْ ، يا آبن عمّي ، أُريد قليلاً من العرق ، أيضاً ، لو سمحت ، فقدحان إثنان لا يبُلّان ريقَ المرء . ليتك تأتيني بزجاجةٍ أُخرىٰ ، مملوءة ، فلا يُهَدِّئ عاصفةَ شَرقيّاتك غيرُ العرق (ويُضيف) روحي فِداءُ صوتك وفنّك ومُحيّاك ! روحي فِداك ، يا عمّ ميناس !

ونهض القهواتي صامتاً ، وتوجّه إلى المطبخ . وهناك أشعل مصباح اللوكس ، وقد حلّ الظّلام ، وعلّقه ... ثمّ أخذ يبحث على أرفف المطبخ ، وفي دُروجه ، عن العرق ... ولمّا لم يعثرْ على شيء خرج يقول :

ــ آسَفُ ، يا صاحبي ، لم يبقَ عَرَق . آكتفِ اليوم بما شربتَ ، وتفضّلْ بالمجيء في يومٍ آخر . على كلّ حال لم يبقَ إلّا أن ننصرف إلى بيوتنا ، ونُغلِق المحلّ .

حاول الكُرديّ إقناعَ العمّ ميناس :

ــ ماذا لو بحثتَ مرّةً أُخرىٰ ، يا آبن العمّ ، في زوايا المحلّ . أنا لست من زبائنك المُداومين ، وإنّ ما شربتُه لا يفعل شيئاً . ثمّ كُنْ على يقينٍ من أنّي سأدفع الحساب كاملاً .

قال عبارته الأخيرة بلهجة الواثق من نفسه .

فعاد العمّ ميناس إلى المطبخ يبحث ثانيةً ، لعلّه يجد مقدار كأسٍ

واحدة يُرضي بها الزّبون . ولكنه أخفق في العُثور على شيء . هٰهنا وَمَضَتْ في ذهنه فكرةٌ ، لحظةَ لمح على الرّف زجاجةَ الكُحول الأزرق ، الذي يُشعِل به مصباحه ، فآبتسم بخبث ، وعاد إلى الكُرديّ يقول :

ــ لم يبقَ عندي سوىٰ زجاجةٍ من « العَرَق الأزرق » ! فإنْ شئتَ جئتُك بها .

فردّ الغريب مُتعجّباً :

ــ ماذا تقول ، يا آبن العمّ ؟ هٰذي أوّل مرّة أسمع بعرق أزرق ! يبدو أنه من النّوع الثّقيل جداً . على كلّ حال أنا لست ممّن يهتمّون بالألوان ، يا آبن العمّ . لا يهمّني في العرق أنْ يكون أزرق ، أو أحمر ، أو أخضر ، أو حتى أسود . يكفي أنّه عرق !

أكّد القهواتي مُتهدّداً :

ــ إنّه عرق ، لا تظنّ ! عرق من النّوع المُؤثّر ، يُريح الفكر ويُنير الرُّوح ، ويمنح شعوراً بالحيويّة ، كمياه البحر الزرقاء .

أعلن الكرديّ نافِدَ الصّبْر :

ــ هيّا آئتِني به ، حبّاً بالله .

ــ سآتيك به .

VII

وعاد العمّ ميناس إلى المطبخ ، وهو يتمتم بين شفتيه بأُغنيةٍ أرمنيّة نظمها توّاً :

عندي عَرَق نَقِي أزرق
نار جعلت الشَّراب يحرق
نور أضاء ظَلام الأنفس
وضاءَلَ من صَلَفِ العظيم الأحمق !

عندي عَرق مثل بحرٍ أزرق
يجعل الشَّاربَ كَنَارِيّاً أبلق
يمشي طَرِباً كطيرٍ جَذِلِ
قد بلغ المُراد المطلق !

هتف السّنيور :

ـــ بَخٍ بَخٍ ! قد نزل الوَحي على قهواتِنا اليوم !

ووضع ساقاً على ساق ، وسحب كرسيّاً ليضعه تحت إبطه يتّكئ عليه .

آعترض الحاجي أرتين :

ـــ أيّ وحيٍ تقول ؟ العمّ ميناس وحيٌ كامل بحدّ ذاته !

وزجّ الكوميسير نفسه في الحوار :

ـــ العمّ ميناس شاعر شعبيٌ منذ زمان ، يا أصحاب ... فما له للوَحْي ! لو آنتظر المرءُ الوحيَ لمات من الجوع . ثمّ إنّ الوحي رمز ، سنتزله المرء بإرادته ويُحقّقه مع مرور الوقت .

قال الكوميسير ذلك ، وهو يفرك عينيه كمن آستيقظ من حُلُم بعيد .

ولا يتوانى السّنيور كالاك عن المُساهمة في الحوار ... فإذا هو يُغنّي ، بصوتٍ أَجَشٍّ كأنه قادمٌ من عالمٍ قاتم ، أغنيةً آرتجل لحَنها :

عمّ ميناس ! أنا لم أجدْ عمّاً مثلك
في أيّ مكان !
أنت الحبيب ، القريب إلى قلبي
أقولها بإخلاص ، صدِّقْني !
عندك عرَق أبيض ، وأزرق ،
وربابةٌ طويلةُ الزّند
تُمتِع بها الجميع
أطال الله عمرك !

وعندما تعالتْ صيحاتُ الآستحسان ، كان العمّ ميناس يعود من المطبخ وفي يده زجاجةٌ عاتِمةُ اللون ، قدّمها للزّبون وهو يهمس في أُذنه :

ــ آفرحْ ، يا آبن العمّ ! قد وجدتُ لك هٰذه البقيّة الباقية من النّبيذ ...

وهنا آرتفع صوت الحاجي أرتين ، يقول وهو يلفّ سيكارةً :

ــ سِنيورُنا المسكين يُغنّي ، أيضاً ! أمر لا يُصدَّق ! وباللغة الأرمنيّة الخالصة ، غيرَ مَشُوبةٍ بكلمةٍ إسبانيّةٍ !

ويتدخّل سركيس بولاديان :

ــ أجل ، أجل ، أرمنيّة صافية .

وينتقل من موضعه ، بمُرافقة محشيكيان ، إلى طاولة السّنيور ، ويجلس إلى جانبه ويضع يده على كتفه ، ويقول :

ــ حُيِّيتَ ، يا سِنيور ! أحسنتَ الغناء . ولا شكّ أنّك تملك كُنوزاً في داخلك . جئتَني عدّةَ مرّات وتصوّرتَ مُبتسماً ، ولم تقلْ آنئذٍ شيئاً ... أين كنت حتى الآن ؟ أنسيتَ إذ دفعتَ قُبَّعتَك ، المُزدانة بريشةٍ خضراء ، إلى الوراء ؟

أجاب أحدهم نيابةً عنه :

ــ لقد كان في أمريكا الجنوبيّة ، ألا تعرف هٰذا ؟

وتبسّم السّنيور بسعادة .

ورفع سركيس صوته :

ــ سِنيور ! بربّك ، غَنِّ لنا الأغنية التي بدأتَها . كانت ممتعةً جداً .

وأيّده الحاجي والكوميسير :

ــ نعم ، نعم . غَنِّ لنا ونحن نُصغي إليك أحسن الأصغاء .

فتحمّس السّنيور ، ورشف من العرق رشفةً ، وآزدرد لقمةً من السّردين ، طَرّىٰ بها حلقه ، وبدأ الغناء :

عمّ ميناس ! عمّي الشّاعر !
أنت مُبهِجٌ للجميع دوماً .
أنا لم أجدْ أبداً مكاناً
ألمس فيه مثل حنانك الأبويّ ، صدِّقني !
في أمريكا الجنوبيّة ،

تنقّلتُ كثيراً ، وطويلاً
لكنْ مثل قريتنا الوديعة
لم أجد أبداً أبداً !

عمّ ميناس ! عمّي الشّاعر !
خذْ ربابتك ، وغنّ لنا
ها قد مضىٰ من العمر يومٌ آخر
فلتقضِ أيامَنا بحبور !

عمّي القهواتي ! عمّي الشّاعر !
تناولْ ربابتك ، ولا تُسرِفْ في تمنُّعك
فأغانيكَ ، لقلبي المُحطَّم ،
دواءٌ ، أريجٌ ، روضةٌ حافلةٌ بالأزاهير !

هتف الحاضرون :

ــ عاش سنيورُنا ، عاش !

ويعصِف ، في قاعة المقهىٰ ، التّصفيق الحادّ وعِباراتُ الأستحسان . لقد بدا المكان ، أوّلَ الأمر ، أشبهَ بساحة حرب ، ثمّ تحوّل الحديثُ إلى مُحاورةٍ بالزّجَل الشّعبيّ ... ثمّ آنتهت القاعة إلى ما يُشبه روضةً طُفُوليّةً حميمة .

يقول الكوميسير :

ــ يا للقلب المُحطَّم ، المُحترق ، الهائم ، الشّريد !

وهٰهنا ينهض الحاجي أرتين ، وفي يده منديلٌ أبيضٌ ، يهزّه وكأنّه

يدعو الحاضرين إلى رقصةٍ جماعيّة ، ومن بينهم صاحبُنا الكُرديّ ، الذي انزوىٰ جانباً وأمامه زجاجةُ النّبيذ ، وبدا وكأنّه قاربٌ صغير تتقاذفه أمواجُ بحرٍ مائج ، لا يهتمّ به أحدٌ ، إلّا من نظراتٍ عابرة تقع عليه وتتحوّل ، دون أن تترك أثراً ، عن غريبٍ في ديارٍ لا يعرفه فيها أحد ، وبين قوم قد أخذتْهم النّشوة .

ويرفع كالاك يده ، طالباً إلى الحاضرين الصّمت ، ويبدأ خطاباً ساحراً :

ـــ حُيِّيت ، يا أخ سنيور ! لقد أجَدْتَ وآستحققتَ الثناء المستطاب . عسىٰ أن تُطْلِع علينا ، بين الحين والآخر ، بمثل هٰذه الأغنية الأرمنيّة الخالصة ، من آبتكارك ونظمك . أنت أمتعْتَنا الليلةَ جميعاً ، وليس ينقصك سوىٰ ربابةٍ في يدك ، لتُصبح مُطربَ كَسَب في المستقبل .

فيقول السّنيور مُتواضعاً :

ـــ الله تعالىٰ قادر ، سيتحقّق ذلك ، بإذنه ، يوماً .

يقول سركيس ، وفي عينيه الزّرقاوين آبتسامةٌ هادئة :

ـــ طبعاً ، طبعاً ! بعد هٰذه السّنين كلّها من التّلمذة على عمّ ميناس ، أصبح لِزاماً عليك ان تغدو مُطرباً !

فقال كالاك ، وهو يُحدّق إلى عينيه :

ـــ طيّب ، وماذا تعلّمنا نحن من العمّ ميناس ، وقد داومنا على الحضور إلى مدرسته طَوال هٰذه السّنين ؟

وتشجّع محشيكيان يقول :

ـــ لم نتعلّم غير اللعب بالورق ، نقتل به الوقت ، وشُرْب العرق والقهوة والنعنع !

VIII

ويخرج العمّ ميناس من المطبخ ، وهو يسعُل سُعالاً حادّاً ، وبين يديه صينيّةٌ عامرةٌ بأكواب القهوة والشّاي ، وراح يُوَزِّعها على الزّبائن ... حتى وصل إلى السّنيور ، فوضع يده الثّقيلة على كتف هٰذا الشّاب المُتعَب ، وقال :

ـــ عشتَ ، يا ولدي ، يا سِنيور ! لقد أصغيتُ إليك . أشكرك على ما تُكِنُّه لي من محبّة . آستمِرَّ في آرتجال الكلمات وغنائها ، فالدُّنيا لا تُطاق دونَ غناءٍ وسرور . (وأردف) على كلّ حال ، يا سِنيور ، أنا هَرِمْتُ ، وبلغتُ من الكِبَرِ مبلغاً ، فلتكنْ ربابتي لك بعد رحيلي ، وتابعْ من بعدي ، وكُنْ المُهَيْمن على حيويّة جبالنا .

فآحتجّ السّنيور :

ـــ ماذا تقول ، يا عمّ ميناس ؟ الدُّنيا حافلةٌ بالمُفاجآت ، والأعمار بيد الله . والقَدَر لا يُفَرِّق بين كبيرٍ وصغير ، بين عليلٍ ومُعافىً !

قال ذلك ، وكَرَعَ ثُمالةَ كأسه ، ثمّ غرق بين أستار حياته المُكدَّرة المُعكَّرة .

وقد تحقّق ما قاله السّنيور : فقد وقع طريحَ الفراش إثر حادث ، ثمّ ما لبث أن فارق الحياةَ قبل غيره من الشّيوخ .

IX

وأمّا العمّ ميناس ...

لقد ظلّ يُتابع العزف على ربابته ذات الأوتار الثلاثة ، في المقهىٰ كلّ مساء ، ويُردِّد أغانيه الشّرقيّة الحزينة ، مُؤكّداً كلماتها ، هٰذه التي تتفتّح في النُّفوس مثلما يتفتّح الرّبيع مع نسماته العليلة ، التي تُهُبُّ فتنعش البراري ، والجبال ، وتتهادىٰ على هَبّاتها باقاتُ الأزاهر ، والحشائش الخُضْر ، لتُضفي على غاباتنا الكثيفة الخضراء وجبالنا الفِضّيّة جَوّاً من البِشْر والحُبُور .

العم هوسيب

I

كان العمّ « هوسيب » ، وهو من جيراننا الأقربين ، شيخاً هَرِماً يُشارف أواخرَ عمره ، وأنا ، في ذلك الحين ، فتىً يافع ، أذكره اليوم أشبهَ بطَيْفٍ عابر في حُلُمٍ قديم قد آنحفر في أعماق نفسي ، بهيئته وبكلّ ما كان يصدر عنه من تصرُّفات .

كان رَبْعَ القامة ، يلبس السّروال الأسود لا يُغيِّره ، وطُربوشاً أحمرَ يعلو وجهه الأحمر القاني . وكان ذا أسنانٍ بيضاءَ نَضِيدةٍ ، لا يُرىٰ إلّا وسُبْحةٌ كبيرة في يده تنِمّ عن منزلته وعمّا يتمتّع به من خِبرةٍ في الحياة .

كنت ألتقي به ، أحياناً ، في ساحة البلدة ، أو في السُّوق ، أو قريباً من مقهىٰ « نوفير » ، مُعلّقاً سُبْحته العظيمة في مِعصمه ، وهو يتحدّث بآنفعال مع واحدٍ ممّن آشترك في الحرب العالميّة الثانيّة . وربّما صادفتُه قريباً من بيتنا ، يتحدّث بصوته الجَهْوَرِيّ إلى أبي ، أو أُمّي ، عن حُدُود

أرضٍ له آحترقتْ ، وتركتْ في قلبه لوعةً وحزناً ... فهو يتناقش كبحرٍ عاصفٍ مائج يلفُظ من أعماقه جثّةً مُنتفخة .

لم أكنْ أعرف شيئاً عن ماضيه ، ولا عن طَبْعه ومِزاجه . ولكنْ كان يتّفق للأسرة أن تأتي على ذِكره في البيت ، فيُشار على الأخصّ إلى زوجته « إستير » (شلار) ، التي كانت المرأةَ الوحيدة في حيّنا ذات الرداء الأسود ، والتي عُرِف عنها بأنّها تُقيم الدُّنيا وتُقعِدها !

وكان بُستان العمّ هوسيب ، القريبُ جدّاً منّا ، عامراً بأشجار التُّوت والتّين والعِنب ، هٰذه التي تجتذب إليها عصافير التّين طَوالَ فصل الصّيف ، فتجلب المُتعةَ في صَيْدها ، ثمّ في شَيِّها ، وفي إسعاد المَعِدة بها .

وكان ما يشغَلني ، في تلك الأيّام ، حتى إنّه ليعِزُّ عليّ النّوم والرّاحة ، أن أحملَ بُندقيّتي على كتفي ، وأمضي مُتسلّلاً إلى بستان العمّ هوسيب ، وهناك أمارس هُوايتي في الصّيد .

وكان إطلاق البارود يَستلفِتُ آنتباه أصحاب البُستان ، فيخرج إليّ العمّ هوسيب وزوجتُه ، ويبدأان بتوجيه الشّتائم واللّعنات ، هٰذه التي كانت تصدر عن السّيّدة إستير أحياناً « شتائمَ منظومة » ، كأنْ تسُبَّني مثلاً فتقول :

آبعدْ عنّا ، يا آبن الكلبْ !
هل هٰذا ميدان حربْ ؟
آذهبْ ، فارِقْنا في الحالْ
أو نضربْك بالنّعالْ !

وتختم ذلك بعبارة غير منظومة :

ــ فارِقْنا ! فلحم عصافيرنا لا يُؤكل !

وما تكاد تفرغ من منظومتها ، حتى يَنبري العمّ هوسيب مُكمِلاً :

اذهبْ إلى الجحيم ، يا قليلَ الإحساس !
لو أمسكتُ بك ، يا ابنَ النّاس ،
لحبستُك في القَبو تحت الدّرياس !

ثمّ يبرُز لي ، من بين الخُضرة ، شبحان أسودان مثل شيطانين ، يُريدان الإمساك بي لخَنْقي ، ولكنّي أهرب بخفّةٍ تعجز معها أقوى السّواعد عن الإمساك بي .

II

في تلك الأيّام ، كما في يومنا هذا ، يبدأ القَرويّون بعَمل الدّبس من العنب في أواخر فصل الخريف . إنّها أيّامٌ مُقدّسة ، ولا يفوت بيتاً أن يحتفل بها ، ولعلّ الاحتفال بها لم يكن يقِلّ رَوْعةً عن أيّام الأعياد التّقليديّة .

كان النّاس يتجمّعون حول قِدْرٍ كبيرة تُسمّى « اللكَن » ، قد أُقيمت على أثافيّ فوق حُفرةٍ عميقة تُوقد فيها النّار مثل جهنّم ، ويَغْلي فيها عصيرُ العنب حتى ينضَج ، وليس يُترَك العمل فيه ليلَ نهار ، تحريكاً ووَقْداً ، حتى يصبح دِبْساً .

والدّبس ، عندنا نحن القَرَويّين ، هو المؤونة الأولى للشّتاء ، وهو أهمّ غِذاء للجميع . كنّا نُموّن ، كلّ عام ، تَنَكَةً من الدّبس وأُخرى من زيت الزّيتون ، وتيناً مُجَفّفاً ، وكيساً من البُرْغل ، وأكياساً من القمح

والطّحين ... وكلُّ مَن توافرتْ له هٰذه المؤونة حُقَّ له أن يمشي في القرية مُختالاً ! وكان ممّن يَحُقّ لهم أن يختالوا ، في بلدتنا ، « هوسيب هوسيبيان » ، الذي فاح عبيرُ دِبسه ، يوماً ، في فضاء حيّنا ، فٱجتذبتْ رائحتُه الزّكية الأولادَ والفتيان .

وأذكر أنّا ٱتّفقنا ، في ذلك اليوم ، على أن نتوجّه إليه ، لنأكل ما يجود علينا به من رَغْوَة الدّبس ، على أن نذهب في الليل ، وقد حلّ الظّلام ، مُلَثّمين حتى يتعذّرَ تعرُّفه علينا نحن مَن دَأْبُنا على ٱصطياد العصافير في بستانه ، ولو عَرَفَنا لثار علينا وحَرَمنا من الاستمتاع بأكْل دِبسه ! فكان علينا أن ننزوي في رُكنٍ ، مُستسنحين الفُرصة للتّسلُّل إلى القِدْر ، ونحن في العَتمة ، نُراقب منظرها الرّائع ، وهي تَغْلي وتفور في فِناء بيت العمّ هوسيب !

كان النّاس ، من رجالٍ ونساء وأطفال ، مُتجمّعين حول القِدْر الكبيرة ، تحت ضوء البدر الفِضّي الإلهيّ ، والنُّجومُ تتلألأ في السّماء ، ينتظرون الرّغْوة . وينهض « فوسكان » ، قريبُ العمّ هوسيب ، ليُلقِم النّار عُوداً من السّنديان ويعود إلى مكانه .

هي ذي بُحيرةُ القِدْر تُرغي وتُزبِد ، وتنطلق منها خُيوطٌ رفيعةٌ من البُخار في باقاتٍ ، تَخالها أفاعيَ تتلوّىٰ مُتصاعدةً ، تاركةً تحتها جيشاً من الحُباب النُّحاسيّة تتصارع وتقتَتِل ويُفني بعضُها بعضاً ، ثُمّ تتوالد مسعورةً ، وتعود إلى الاقتتال في ضجّةٍ من صُراخٍ وعويل !

وينتصب العمّ هوسيب ، الآنَ ، حاسرَ الرّأس ، مُشمِّراً عن ساعديه ، أمام القِدْر العظيمة ، بصمتٍ وٱنتباه . ويُتمتم وهو يرسُم ، بين الفَيْنة والأُخرىٰ ، مثلَ كاهنٍ في حِداد ، علامةَ الصّليب على الحجارة

التي يفوح منها عَبَقُ البَخُور ، وتقبَع تحتها القدسيّات والذّكريات التي تنبعث حيّةً ، مُقْشَعِرّةً في طَرْفة عين ، تَئِزّ وتُفرقِع بهدوء .

III

كان جارنا ، العمّ هوسيب ، غيرَ هيّاب ، حادّ البصر نشيطاً . وأعرف أنّه آشترك في الحرب العالميّة الثانيّة ، وأظنّ في الأُولىٰ أيضاً ، جُنْدياً مُقاتلا .

وقد حكىٰ لنا أبي عن بعض مآثره وبُطُولاته ، هٰذه التي شاهدتُ بأُمّ عيني واحدةً منها يوماً ، وكانت بُطولةً خطرة ، مارسها مع بعض الحيوانات ، الطّائِر منها ، والقافز ، والزّاحف ، فقد كان يستطيع القضاء على أيّ نوعٍ منها ، حتى باتت الأفاعي والسُّحالىٰ والثّعالب تتوارىٰ حين تلمح ظِلَّه . فيداه تبدُوان مثلَ كمّاشة من حديد ، وقدماه مثلَ مَطارقَ فولاذيّة . يمسِك بالسّمين من العصافير حيّةً بواسطة فُروع الدّبَق ... والوَيْلُ كلّ الويل للطّير الذي يقترب من دَبَقه ، ولغير الطّير أيضا !

ذات يوم ، أخذتُ أبحث ، في النّاحية الجَنوبيّة من بُستانه الفسيح ، عن طيرٍ وقع تحت شجرة تينٍ وارفة الظّلال . فلمحتُ ظلّ العمّ هوسيب ، المُلَوّن . كان يُمسك بيده عودَ توتٍ ، رفيعاً مَرِناً ، يُلاحق به ثُعباناً ، قد نجح في الآندساس في جُحره ظانّاً أنّه نجا . لكنّ العمّ هوسيب يتعقّبه ، وقد بدا كما لو أنّ الدّم ينفِر من عينيه . رأيتُ طيفه العظيم أمامي ، يهزّ العصا بيده بعصبيّةٍ ظاهرة . ثمّ آنحنىٰ ، راكعاً على الأرض ، ودسّ العصا في الجِحْر ، وآبتسم ... ثمّ مدّ يده الحديديّة إلى الجحر !

آنتابتْني قشعريرةٌ هزّت بدني حتى بلغت أدقّ شِريانٍ في قلبي ، ثمّ آعترتْني بُرودةٌ لم أشعرْ بمثلها حتى في أيّام الشّتاء ، على حين كانت الشّمس تتوسّط كَبِدَ السّماء والأرضُ عطشىٰ في حاجةٍ إلى قطرة ماء .

بعد بسمة العمّ هوسيب ، غيرِ العاديّة ، آنطلقتْ من بين شِدقيه ضحكةٌ شيطانيّة مُجلجلة . رأيتُه وقد أمسك بذَيل الأفعىٰ العظيمة السّوداء ، يسحبها من مَخبئها . مَضَتْ ثوانٍ ، والزّاحفةُ تنجَرّ شيئاً فشيئاً ، بالرّغم من مُقاومتها المُتفانية ، والحجارة تصطبغ بدمها ... وتخرج ، كجَذْرِ شجرةٍ يُسَلّ من بين التّراب ، مُستسلمةً لرغبة العمّ هوسيب القاتمة .

لم أتمالك نفسي من أن أُطلق صيحة إعجاب :

ـــ يا للفظاعة !

ونهضتُ من بين النّباتات الكثيفة ، ناسياً أنّي صيادٌ للعصافير غيرُ مرغوبٍ فيه !

ورحتُ أُحدّق إلى المشهد ، مُنجذباً إليه ، لا يَرِفّ لي جفن ، وأنا أرىٰ العمّ هوسيب ، وقد أتمّ السّيطرة على الأفعىٰ ، وراح يهزّها هزّاً عنيفاً في الهواء ، حتى تراختْ ، فهي في يده أشبهَ بخرقةٍ بالية ، تحسب أنّ عمودها الفقريّ قد تحطم فقرةً فقرة ، فلا حول لها ولا قوّة .

ويقول العمّ هوسيب :

ـــ خُذيها !

ويَجُذّ حجرٍ يفصِل الرّأس عن الجسد .

ويحمل جسد الأفعىٰ لُقمةً سائغةً لكلبه .

IV

ويُشاهِد أبي ، في الخندق الضّيّق الذي يفصل بين بُستاننا وبين بُستان جارنا « المقدسي » ، في يومٍ ربيعيّ دافئ ، ثُعبانين أسودين مُلتفّين مُتلاحمين ، في عِراكٍ تقشعرّ له الأبدان . فما كان منه إلّا أن أسرع في طلب النّجدة من العمّ هوسيب . والحقّ أنّه كان على أبي أن يستدعي ، لهذا المشهد الرّائع ، المصوّر « سركيس بولاديان » ليلتقط صورةً نادرة جديرة بأن تُذيع صيته ، على جناح الرّيح ، في أنحاء العالم ... ولكنّ ذلك ما فات أبي وهو في اضطّرابه !

وصل أبي إلى بيت العمّ هوسيب مبهورَ الأنفاس . وبصُعوبةٍ بالغة تمكّن من أن يشرح له أمر الثّعبانين بعباراتٍ قصيرة موجزة ... ثمّ يَمّم وجهه شطرَ بستاننا .

المُتخصّص بقتل الثّعابين مُستعدٌّ دوماً . تناول عصاه ، السّحريّة ، من تحت الحصير ، وخرج يتبع أبي .

فلمّا وصل الرّجلان إلى ... ساحة الوغىٰ ، دُهِش أبي ممّا رأىٰ : الثّعبانان مُتعانقان بسُكُون ، اللسان يُداعب اللسان ، والذّيل ملتصقٌ بالذّيل ... فهما ينعمان في جنّة الحُبّ الغريزيّ !

فما كان من أبي إلّا أن رفع رأسه ويديه نحو السّماء ، وقال بصوتٍ

أقربَ إلى الصُّراخ منه إلى الابتهال ، وهو يفرك عينيه مُحاولاً جُهْدَه أن يستيقن مما ترىٰ عيناه :

ــ يا إلٰهي ! أعِراكٌ هٰذا ، أم هي مُمارسةٌ لطُقوس الحبّ ؟!

قال العمّ هوسيب :

ــ يا صديقي ! لا تتأثّر بعِراك الأفاعي ، ولا بُحبّها !

وينظر ، بعينَيْ صقرٍ ينبعث منهما الشّرر ، ويُضيف :

إذا ظنّنا هٰذا حبّاً ، فسوف يُمزّق كلٌّ منهما الآخر بعد قليل ! فإن حسبناه عِراكاً ، فلن يلبثا أن يُحقّقا غايتهما من الحبّ عاجلاً أو آجلاً !

أجاب أبي :

ــ وأنّىٰ لي أن أعلم ؟!

ثمّ أُرْتِج عليه ... ولكنْ كان لا بُدَّ من أن يردّ على تساؤل العمّ هوسيب . فقال هٰذا الذي خطر على باله وانطلق لسانُه يُعبّر عنه في شيء من التّردُّد :

ــ فما معنىٰ كلماتِ الكِتاب المُقدَّس إذن : « كونوا كالحيّة عميقي المعرفة ، وكالحَمام أغبياء ! » ؟

فيقول العمّ هوسيب ، وهو يهزّ رأسه :

ــ أقوال الرُّسُل القُدامىٰ ... معنىٰ ذلك أنّا إنْ مَلَكْنا معرفةَ الحيّة العميقة ، وغباءَ الحَمامة الأليفة ، فالويل لما يحدث لنا ، ولقُلوبنا !

فيُجيب أبي ، شاردَ الذّهن :

ـــ لا أعرف ! (ثمّ يقول جادّاً) والآن ، ماذا قرّرتَ في شأن الثُّعبانين ؟ آنظُرْ إليهما كيف يتلوّيان ويُصَفِّران كالأبالسة . أخشىٰ أن يزحفا ويتسلّلا إلى مكانٍ قريب ، فيُصبحا كارثةً في حيّنا !

يقول العمّ هوسيب :

ـــ لا تقلقْ ، يا جاري العزيز . فقراري لا يتغيّر !

وأخذ يقترب من الثُّعبانين ، حتى غدا فوق رأسيهما . وفي غمضة عين ، وبحركةٍ خفيفةٍ بارعة ، من عصاه ، كان صوتٌ ، قد صدر عن العصا ، موسيقيٌّ رخيم ، فنزل على قلبي برداً وسلاما !

ونزلت الضربة ، مُفاجئةً كالصّاعقة ، على الثُّعبانين ، فزادت في طول لسانيهما الأحمرين ، المُمتدّين ، وآستدار الفَمان ليكشفا عن أنيابٍ فيها السّمّ الزُّعاف .

ويصرُخ العمّ هوسيب في الثُّعبانين :

ـــ أيتها الأفعىٰ ! يا قليلةَ الحياء ! يا مُخادعة !

وآنهال عليهما ، كالمخمور ، يُوسِعُهما ضرباً ، والشّرر يقدح في عينيه ، ويتطاير ، قادراً على أن يحرق كلّ ما يعترض طريقه ، يبتلعه ويُفنيه !

وأبي يُتابع هٰذا المشهد الرّهيب ، الذي تُضفي عليه شمسُ الرّبيع لمعاناً وحركةً يعجز عنها الوصف .

بدا الثُّعبانان في أَوْج غضبهما على هٰذا الغريب الذي تجرّأ ففرّق بينهما في لحظةِ الحبّ . وإذا هما يفتحان عليه جبهتَيْ حرب : فيرفع كلٌّ

منهما رأسه في شموخٍ مُتحدِّياً ، مُتَّخذاً وضع المُحارب المِقدام ، ومُحاولاً طعنه في جنبه وقتْله مثل كلب . ولكنّهما ، الأحمقَيْن ، لا يعرفان أنّ هٰذا الأدميَّ الذي يُجابههما هو جارنا العمّ هوسيب ، القادرُ على أن يمنع حتى العفاريت عن الآلتقاء على سرير الزّوجيّة !

ثمّ لم يكنْ ثمّة بدٌّ من آنتظار ضربة القدر الحاسمة ، التي تُشبه صوتَ طلقةٍ بندقيّة .

وحانت اللحظة .

وآرتدّ أبي إلى الوراء مشدوهاً ، وأطلق صرخةً لا يعرف نوعها : لقد رأى الثّعبانين مُعلّقين من ذيليْهما بين أصابع العمّ هوسيب فكأنّها المَصْيَدة . وهو يهزّهما هزّاً عنيفاً أفقدهما الوعيَ ، فأغمضا العُيون ، وآنسحب اللسانان الأحمران فآنطبق عليهما الفمان ... ثمّ سقطا على الأرض ، تحت أشعّة الشّمس ، وسَكَنا ، وكأنّهما في سُباتهما الشّتوي .

وصرخ العمّ هوسيب :

ــ خُذاها ، يا آبنَي الأبالسة !

وهَرَس بحجرٍ رأسَيْهما ، كما لم يفعلْ قبلَه بطلُنا الأسطوريُّ في القرن الثالث « فاهاكن » مع أفاعيه . ثمّ رماهما بآزدراءٍ تحت قدمي أبي .

وقال :

ــ هكذا يجب أن تتعامل مع الأفاعي ، يا جار . خُذْها نصيحةً منّي : لا تضعُفْ ، ولا تتهاوَنْ ، ولا تضطّربْ أمام الأفاعي ، خُصُوصاً منها تلك التي تسير على رِجْلَيْن من بني البشر !

فيُجيبه أبي ، مُستغفراً وهو يمسح العَرَق المُتناثر على جبهته :

ـــ ماذا ، يا عمّ هوسيب ؟ ما كنت أعرف أنّك قاسي القلب إلى هٰذا الحدّ !

ثمّ نظر إلى جثّتي الثّعبانين بحزن ، وهزّ رأسه ، قائلاً :

ـــ كان المسكينان في طريقهما إلى الحبّ والزّواج ليبدأا حياتهما الجديدة ... فجئتَ أنت وهدمتَ سعادتهما ، وحكمتَ عليهما بالموت .

ـــ لا حاجة بنا إلى سعادةٍ سامّةٍ ، على وجه الأرض !

قال العمّ هوسيب ذلك بغضب ، وهو ينفض الغبار عن سيرواله بطرف عصاه الميمونة الرفيعة . وأضاف مؤكّداً أقوالاً عميقة المعنىٰ :

ـــ اسمعْ ، يا عزيزي ! تُرىٰ ألا يشعر كلُّ واحدٍ منّا أنّ تحت جلده ، وفي عُروقه ، وفي دورة دمه ، مثلَ هٰؤلاء الظَّلَمة القساة السّامّين ؟!

أجاب أبي وهو يفرك جبينه بهُدُوء :

ـــ إنّ السّمّ يُستخلَص ويرتفع ثمنُه في عالَمنا ، اليوم ، يا جار ! إنّه التّرياق الوحيد لآلام النّاس الآن ، والمُسكِّن الوحيد لكلّ أوجاعهم .

فردّ العمّ هوسيب :

ـــ البحث عن السّمّ أمر مختلف ، ويتنافىٰ وموضوعَنا ، ولا يهمّنا في شيء . ولكنّي أُحذّرك ، بعد كلِّ شيء ، من أن تأْمَن الأفاعي . فأفواهها ، وأنيابها ، مملوءةٌ بالسّمّ . لا تُصدِّقْ القُبلات الكاذبة . إنّها تُقيّدنا ، وتقودنا نحو الظّلام الأبديّ !

V

بعد كَرِّ الأيّام ومَرِّ السِّنين ، هٰذه التي تتراوح بين اليُسْر والعُسْر ولا نكاد نشعر بها ، وقع العمّ هوسيب طريحَ الفراش . وأخذتْ أحواله تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

ذهب أبي لعيادته . وما إن سمع العمّ هوسيب صوتَه حتى عرفه ، وفتح عينيه منتعشاً ، قال :

ــ إيه ، جورج ، يا جار ! هأنذا أمضي ، وقد تبدَّتْ الدُّنيا لي سِجناً عملاقاً أسودَ يحتويني . أطيافٌ عجيبة تُحوّم فوق رأسي ، تسخر مني ، وتضحك مُكشّرةً عن أنيابها . إنّها تستعدّ لأبتلاع رأسي ، مثلما كنت أفعل بالأفاعي فيما مضى .

وآرتفع صوته باكياً :

ــ الدُّنيا فانية ، وخاوية من كلّ شيء .

وآنحدرتْ دمعتان ، من عينيه الغائرتين ، فوق خدّيه :

ــ لا تنزعجوا ، لا تقلقوا ، لا تتحاسدوا . عيشوا معاً بفرحٍ ومحبّة ، وليكنْ التّسامُح نبراسَكم . وليسامحْني مَن آذيتُهم وأغلظتُ لهم في القول .

ولم يُحْجم أبي ، حتى في هٰذا الموقف المُحزن ، عن إطلاق لسانه بالدُّعابة . آقترب بكرسيّه من فراش المُحْتَضَر ، وقال :

ــ أنت راحل إذن ، يا عمّ هوسيب ؟ رافقتْك السّلامة ! آذهبْ ، وسلّمْ لي على كل الأموات الصّالحين الذي كانوا على وجه الأرض !

آذهبْ ... لكن آسمعْ : إنْ لم يُعجبْك « الجوّ » هناك ، ولم يكنْ على مِزاجك وأنت بين مُعَذّبيك ، فلا تتأخّرْ في العودة إلينا ، لتعيشَ بين أهلك وعلى سفوح جِبالك ، وتبدأ حياةً جديدةً غنيّةً بالنّتاج الوفير ! أجل ، عُدْ إلينا ، مثلما تعود العصافير السّمينة في الصّيف ، ومثلما تُورق أشجارُ التّين التي تَعَرّتْ ، أو تعود الكرمةُ إلى الحياة بعد موتٍ في الشّتاء ، ومثلما يعود أريجُ الدّبس إلى الآنتشار في الخريف على مدى الزّمان !

فقال العمّ هوسيب بصوتٍ مرتعش واهٍ حتى لا يكاد يُسمع :

ــ وكيف ذلك ؟ إنّ أحداً لم يَفْلِتْ من قبضتهم ، قبل اليوم ، أو يتمكّنْ من العودة ؟!

فشجّعه أبي :

ــ حاولْ أنت أن تجتاز حُدُود جهنّم ، وتهرب من سَدَنَتها ، وتعود إلينا !

لكن المُحتَضَر لم يُجبْ . بل وضع يده على كتف أبي ... ثم ساد صمت .

وفي زاويةٍ من الغرفة شَخَرَتْ قطّةٌ عجفاء .

ثمّ إنّ السّرير ، الذي يرقُد عليه العمّ هوسيب ، آهتزّ ، وأعقبتْ ذلك خرخرة . ومال الرجل برأسه ولفظ آخر أنفاسه .

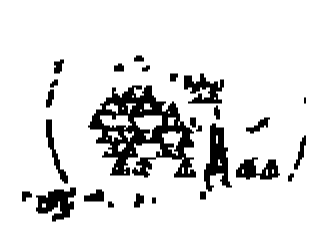
وعمّ الحزنُ الحيّ إكراماً لشيلار زوجة الميت .

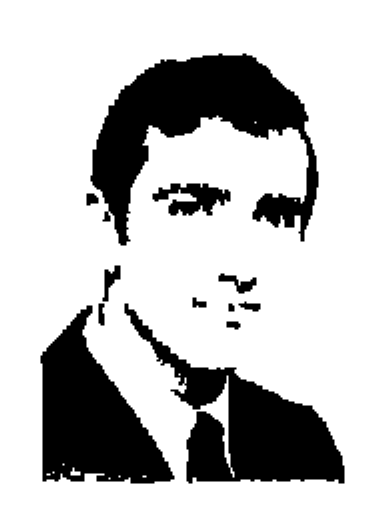
المحتوى

صوت من جبال كَسَب : قصص وحكايات / زوهراب عنتبليان . ــ
نقله عن الأرمنيّة : نزار الخليلي . ــ
دمشق : تنفيذ :إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع ، ١٩٩٣ . ــ
١٧٦ ص ؛ ٢٢ سم .
١ ــ ٨٩١ ع ن ت ص ،
٢ ــ العنوان ، ٣ ــ عنتبليان ، ٤ ــ الخليلي .
مكتبة الأسد الوطنيّة
الإيداع القانوني : ٤٩١ ــ ٥ / ١٩٩٣

إشبيلية : تنفيذ ١ (ط ١) ــ ١٣٠٠ ــ ٦ / ١٩٩٣

التّنفيذ :
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع بدمشق
الطّباعة :
دار الجمهورية للطّباعة والنّشر بدمشق





* وُلِدَ زوهراب عتبليان في بلدة « كسب » عام ١٩٤٢ .

* تلقّى تحصيله الابتدائيّ في مسقط رأسه ، في المدرسة الإنجيليّة الخاصّة . ثمّ عافتْ نفسُه الدّراسة ، فتوجّه إلى العمل مُساعدًا لأبيه في خدمة الفُندق الذي يملكه وفي العناية بمزرعة الأُسرة .

* ولكنّه ما لبث أن وجد في نفسه ، وهو في سنّ الفُتُوّة ، حاجةً إلى التّعبير عن خلَجات النّفس بالقلم . ومع ضآلة حظّه من التّحصيل المدرسيّ ، أخذ ينظُم الشّعر ، ويكتب القصّة ، وتجاوز ذلك إلى مُمارسة الرّسم والموسيقى .

* وهو يُقدِّم لنا ، في كتابه الأوّل هٰذا ، بعض ما أمدّته به القريحة من حكاياتٍ كتبها في سنوات الثّمانينات على وجه الخصوص .

* تزوّج في العام ١٩٧٢ ، وهو الآن أبٌ لثلاثة أولاد (ابن وبنتين) .

... وإنّك لتجد ، في تضاعيف هٰذا الكتاب ، ملامحَ من حياة الجالية الأرمنيّة في كَسَب وغيرها من المُدن السّوريّة ، في ما يُمارسون من عملٍ ويَحْيَوْن من أمل ، فتُشاركهم معاناتهم وتُشاطرهم أفراحهم ومَسرّاتهم .

وذلك كلُّه بأُسلوبٍ يَغلِب عليه طابعُ الحكاية الطّريفة ، والألتزامُ بالواقع المجبول بتراب الرّيف ونُسْغِه وعطره ، مثلما يتّصف بلغةٍ سَلِسَةٍ قد أَضْفَتْ عليها التّرجمةُ الأنيقة جمالًا ورونقا ...

مّما جعل الكتابَ جديرًا بالقراءة .